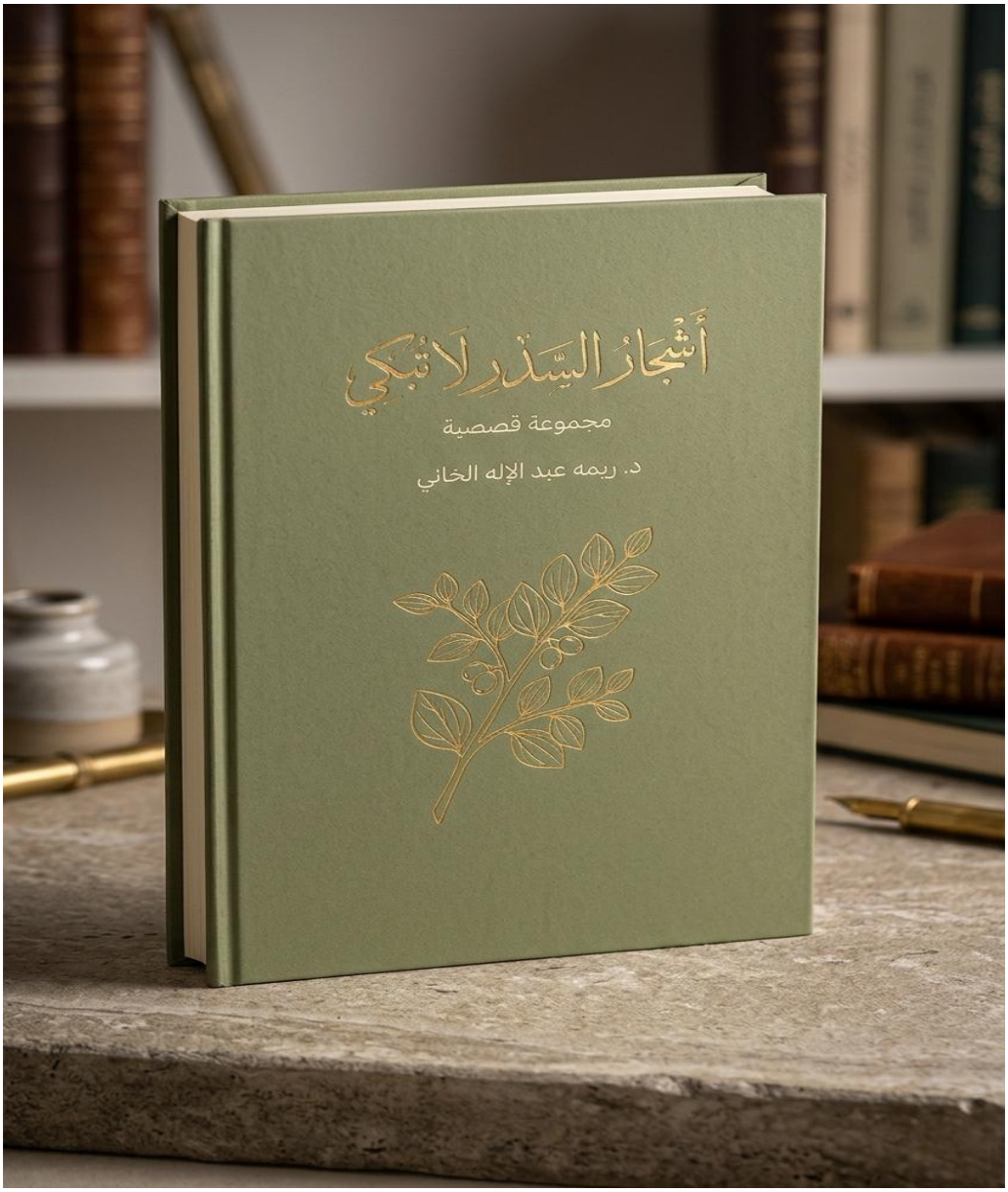

أشجار السِّدر لا تبكي
مجموعة قصصية
د. ريمه عبد الإله الخاني

أشجار السدر لاتبكي[1]

مجموعة قصصية

د. ريمه عبد الإله الخاني

[1] كان هذا عنوان رواية من الروايات القصيرة في تلك المجموعة.
«أشجار السدر لا تبكي» تحمل دلالات رمزية وأدبية عميقة تعبّر عن الصمود والثبات في وجه القسوة، وقد تُفهم في أكثر من سياق بحسب المقصود من طرحها:
1. الدلالة الرمزية والتراثية
• رمز القوة والصلابة. تُعرف شجرة السدر بقدرتها الفائقة على تحمل الجفاف، والحرارة الشديدة، والرياح الصحراوية القاسية دون أن تذبل أو تنكسر.
• الإسقاط الإنساني. يُستخدم هذا التعبير مجازياً لوصف الإنسان القوي أو المجتمعات التي تتجذر في أرضها وتصمد أمام المحن والظروف الصعبة دون انكسار أو استسلام.
3. الحقيقة العلمية والبيئية
• تكيّف نباتي مذهل. تمتلك أشجار السدر جذوراً عميقة جداً تصل إلى المياه الجوفية، وأوراقاً صغيرة ذات طبقة شمعية تقلل فقدان الماء.
• إفرازات طبيعية. قد تفرز الشجرة أحياناً مادة صمغية أو عصارة نتيجة الإصابة بحشرات أو جروح في اللحاء، وهو تفاعل دفاعي طبيعي لحماية نفسها وليس ذبولاً أو ضعف .

إهداء

لكل من تقبل انشغالي الدائم ..

بل وآزرني واستوعب رسالتي الأدبية والفكرية ..

لأسرتي وأخواتي في الله الغاليات..

أهدي هذه المجموعة.

تقديم(1)

ومضاتٍ حية

تتعدد أجناس الأدب بين الشعر والسرد والمسرح والنثر الفني، وجميعها فنون جميلة يزداد أثرها مع الصياغة الموحية التي يبرع فيها الأديب. ويحتل السرد، برواياته وقصصه الطويلة والقصيرة، موقعاً متميزاً في هذا الفضاء الإبداعي. وتبلغ القصة ذروة نجاحها من خلال بنائها المحكم، وتدفق أحداثها، وصدق رسم شخوصها، ومراعاة المنطق الحياتي في تحولاتهم؛ لتبدو مشهداً نابضاً يتابعه القارئ بعينه وقلبه عبر الزمان والمكان. وكلما أفصحت الشخصية عن مكنونها بعفوية صادقة ولفظ جزل سديد، تحوّل السرد إلى شراكة وجدانية وتجربة إنسانية حية تصل القارئ بروح النص، وتضفي عليه تألقاً ملموساً؛ وعندئذ يتصاعد شغف المتابعة، وتغدو العبارات –بما تجمعه من بساطة وهدوء وإيحاء ومتانة بناء– ومضاتٍ حية تترك إحساساً صادقاً ليس للقارئ أن ينساه.

****

(أشجار السدر لا تبكي) مجموعة قصصية تميزت بإنجاز أدبي متقن. ولقد تابعتُ هذه القصص قراءةً، وعشت معها واقعاً، وتلمست كيف تصدرت المشاعر كل قصة وهي تنساب من قلم غني يجمع بين جمال السرد وواقعية التعبير دون أن تبرحه البلاغة في كل فكرة من الأفكار. وإن جمالية النص وتناسق الأفكار يؤثران في نفس القارئ في كل قصة؛ ليتحول السرد إلى واقع حي وأجواء مفعمة بالقيم والعواطف الإنسانية الصادقة. ويتناغم تسلسل المقاطع في خطى متلاحقة تجعل القارئ لهوفاً إلى المتابعة كلما تقدم سطراً، وكأنما بابٌ ينفتح تلو الآخر دون أن ينقطع حبل الاندماج. ولقد حافظت ابنة العم الأديبة الدكتورة (ريمة عبد الإله الخاني) على انضباط القصة القصيرة كما يراها الأدب المتقن، فوفت المعنى حقه دون شطط أو ترهل، وجعلت القارئ يتطلع بشوق إلى المتابعة والاستزادة.

لا بد للقارئ الذي يعيش مع هذه القصص المعبرة أن يتلمس ما تحويه النصوص من فن بياني تترصع به معظم المواضع. ولا بد للمتذوقين أن يستشعروا تلك الحيرة الممتعة عندما يعيشون لحظات التأمل في تعيين المغزى في كل موقف ضمن كل قصة. ولعل هذه الحيرة نتيجة طبيعية للتنوع الغني في نفس الأديب بين القيم الإنسانية، والضوابط الأخلاقية، وحسن التعامل، وجميعها يرسم سموّ الأفعال ويعرّي نقيضها من خلال إشارات ضمنية تهمس بالمعنى ولا تفرضه؛ فالنصوص لا تُغلق على رسالة واحدة، بل تفتح أمام القارئ مسارات متعددة يحمل كل منها قيمة إنسانية أو أخلاقية أو سلوكية عند من تحققت عنده الثقة بالنفس إيماناً ويقيناً.

****

ما إن انتهيت من قراءة أول قصة في هذه السلسلة حتى توقفت أسأل نفسي: ما المغزى الذي تريد أن توصله الأديبة إلى القارئ من خلال (مفاتيح القلوب وحسرة النداء)؟ تُرى، هل تريد أن تعبر عن أهمية اللباقة وحسن التعامل مع الناس بآرائهم وأفكارهم المختلفة؟ أم عما تركته تلك السيدة المؤمنة من شعور في النفس، وحنين وشوق في القلب إلى فلذة الكبد؟ أم ترجيح العقل على العاطفة والصراع داخل النفس في غمرة الحيرة بين الخيار الصحيح وإغلاق الأبواب تحت مظلة اللباقة وحسن التدبير؟ حقاً، كان من الصعب عليّ أن أمسك بالمغزى النهائي مع تعدّد زوايا النظر، وتراكم القيم الإنسانية، وشمول النص لكافة جوانب السلوك في آنٍ واحد!

التقطت الدكتورة (ريمة الخاني) العنوان: (أشجار السدر لا تبكي) لتعبر عن رمز لافت مشحون بدلالات رمزية وعاطفية عميقة، ومضمون يتميز بلمسات فنية تجعل القارئ يتوقف عند مغزى هذا العنوان بعد أن قرأ فقرة (البداية) وعلم أن القصص تزخر بالعبر والفوائد. فلئن قرأ تلك القصة

القصيرة التي تحمل عنوان المجموعة نفسه، تبيّن له أن هذا العنوان يرتبط ارتباطاً وثيقاً برغبة لديها في التعبير عن صلابة اليقين، وأثر الثقة التي يرسخها الإيمان في النفس الإنسانية مهما تنوعت قسوة الظروف بين غربة قاسية وجفاء من الناس وتأسيس للأسرة بعيداً عن الوطن والأحباب. وهكذا شجرة السدر ترسخ في الأرض القاسية لتؤكد أن القوة الحقيقية لا تبكي أمام الخسارات، بل تطوع الخسارة فتحيلها إلى حياة وكرامة، وتجعل من اليقين بالله إباءً لا ينحني أمام عواصف الخذلان. ولئن كانت النفس لا تبكي، فهذا لا يعني أنها لم تتألم، بل لأن حزنها نضج وتحوّل إلى ثباتٍ هادئ يشبه رسوخ أشجار السدر التي لا تهزّها الريح العابرة.

قرأت جميع القصص والخواطر، ولفت نظري كثافة الصور والألوان البيانية وجمالها مما أحال التعبير إلى صورة حية تُرى بالخيال وتُحسّ بالوجدان. ولا تكاد تستشعر تشبيهاً بليغاً حتى ترى استعارة مكنية، أو كناية تمنح السرد حرارة وحيوية. ولئن استشعرت التشبيه البليغ الذي خلت منه أدوات التشبيه، تفاجئك استعارة مكنية توحي بأن (خلية العمل كائن حي ينبض). وهكذا تتكرر الصور البيانية اللافتة؛ فـ (الجدران الغريبة تزيد من برودة الأيام، ووحشة المكان تلتهم الساعات)... وهكذا.

****

إحدى عشرة قصة قصيرة معبرة، وخمس خواطر قصصية، وروايات قصيرة هي حصيلة هذا النتاج الثمين. وإني أرى أن القارئ على موعد مع متعة فريدة، وتوق إلى المتابعة في قراءته لكل قصة من قصص هذه المجموعة.

محمد هشام نذير الخاني

عالم وباحث أكاديمي. 2026/11/24

تقديم(2)

تَحِيَّةُ قَلَمٍ لِقَلَم..

بقلم: شامل سفر

عندما أقرأ للدكتورة ريمة الخاني، أشعرُ وكأنَّ أنوثةَ الأدبِ تشتكي، لا مِن أديبتنا ولا مِن نثرها الذي يكادُ يكون قَرِيضاً فلسفياً مختبئاً تحت حُلَّةٍ مِنَ القالَبِ القصصي، بل مِنْ أولئكَ الذين ظلموا الأدبَ إذ جعلوا منه نَوعَين: رِجَالِيٌّ وَنِسائيّ، وكأننا – في هذا العالم – تَنقُصُنا التصنيفاتُ التي ما أنزلَ الله بها مِن سُلطان. وأمّا أولئك الذين لا يقولون عن أدبٍ أنه (أُنُوثِيّ!) إلا إذا مَالأَتْهُم كاتبتُهُ بالتَّطْرِيَةِ اللازمةِ والكافيةِ لإشباعِ عُقَدِهِمُ النفسيةِ، فَأَدَبُ كاتبتِنا بالنسبة إليهم مَجَرَّةٌ أُخرى؛ ربما حلموا بالوصول إليها إذا – وفقط إذا – تَمَكَّنَ الإنسانُ يوماً مِنِ اختراع مركبةِ فضاءٍ قادرةٍ على إيصالهِ إلى هناك دُونَ أن يحترق.

****

هذا وقد عَرَفْتُ سَيِّداتٍ كثيرات مِمَّنْ تستحقُّ الواحدةُ منهنّ أن يُقالَ عنها: «أخت الرجال»، وأمّا أَدَبٌ تكتبهُ سيّدةٌ فأقرؤهُ فأشعرُ أنَّ التي خَطَّتْهُ بِيَمينها إنسانةٌ أتمنّى لو كانت أختي ابنةَ أمي وأبي، وأشعرُ في الوقتِ نفسهِ أنَّ هذا الأدبَ يُخاطِبُ فِيَّ شعوري بالمسؤولية خِطابَ النِّدِّ لِلنِّدّ، لا تَشَبُّهاً ولا تغييرَ فِطْرَةٍ – حَاشَا – بل تَمَثُّلاً رائعاً حقيقياً لِكَونِ النساءِ شَقائقَ الرجالِ .. فهكذا أدب تُوضَعُ لَهُ الأقلامُ جانباً؛ احتراماً وتقديراً، واعترافاً بِالمَكانةِ هُوَ في غِنىً عَنْهُ ولا ينتظره.

ولقد تَنَازَعَ قلمَ الدكتورة الخاني – أقولُ هذا تَوَقُّعاً – شعوران؛ واحِدٌ كان يَنحو بها باتّجاهِ العناية

بِالصَّنعة، وَثَانٍ يأخذها في تَيَّارِهِ الدافئ نحو شواطئ مِن عُمقِ المعنى؛ ذاك العمق الذي يثق بأنَّ المفردةَ التي تعرف مكانَها ومكانتَها بِحَقٍّ سَتَضِنُّ بِنَفْسِها أنْ تأخذ مكانَها مفردةٌ أقلّ تعبيراً ولو بِدَرَجَةٍ تُسقَطُ مِنَ الحساب الفيزيائي. وَلَعَلَّ كاتبتَنا إذ ذاك، تركتِ القلمَ يَخُطُّ على سَجِيَّتِه، فما خانَها ولا قَصَّر.

لفتات .. ومضات .. لقطاتُ كاميرا .. كل هذه التعابير التي تُستَخدَمُ أحياناً في وَصْفِ القصة القصيرة، أَجِدُها قاصرةً عن أنْ تُناسِبَ هذه المجموعةَ البَوحِيَّةَ عقلاً وقلباً، ولن أقولَ: «قصصية» وَحَسْب، فقد كنتُ وأنا أقرأ أَجِدُ قصصاً عديدةً في القصة الواحدة؛ كل منها تستحق وقفةً بل وقفات.

عزيزي القارئ، عزيزتي القارئة .. لن تتركَكَ هَذِي القصصُ تقرؤها وتمضي، لا ولن تتركِكِ تقرئين ثم تنسين، أَعِدُكُما بهذا.

وَلِأنَّ الزمنَ زمنُ القراءةِ على الشاشات أكثر من الورق، وَبِمَا أنَّ «طُغيَانَ» نظريةِ الـ Post عَمَّ بَلاءُ جائحتهِ وانتشر، فقد أمسكت الأستاذةُ الفاضلة عصا سُلْطَةِ القَولِ مِنَ المُنتَصَفِ ولم تضرب بها – ولو شاءتْ لَفَعَلَتْ – فجاءَ خِطابُها القارئَ وَسَطاً لا يَهْبِطُ بِذائقةِ التلقّي لكنه لا يَرتَفِعُ بها أيضاً إلى ارتفاعاتٍ يُخشَى عليه منها أنْ .. أنْ يُصَابَ بالدوار، لِنَقُلْ ذلك.

وَبَعْدُ، فهذه تحيةُ قَلَمٍ لِقَلَم، وَحَامِلِ هَمٍّ لِحَامِلةِ هَمّ شَرَّفَتْنِي إذ سَمَحَتْ لي بِقَولِ كلماتٍ عن أدبها، وَأَعْطَتنِي فوقَ ما أستحقّ، فجزاها الله خَيرَ الجزاء.

دمشق في 2026/11/25 شامل سفر[2]

[2] روائي وقاص سوري، يعمل في المجال الإذاعي.

بداية

مجموعة ليست كسابقها من المجموعات فقد أتت بعد انقطاع طويل عن القص..

فقد أخذنا عالم البحث وأسرنا بعالمه الأكاديمي المشوق المليء بالفكر..

لاغنى عن عتباتنا الأولى ولاغنى عن تذكر الخطوات الأولى فتصبح بعد وقت خطوات أحلى وأجمل..

خاصة لو كان قبلها محطات غنية أثرت التجربة عبر سنوات طويلة..تجاوزت عشر سنوات.

لقد فرض القص نفسه مبديا شوقه للحضور في ساحة الأدب من جديد...بل في ساحتي..

فكانت تلك فرجة لاستعادة جميل الشعور الذي يحكي الشعور ..

تنقسم مجموعتنا كالعادة[3] إلى قصص قصيرة وبعض خواطر قصصية، فروايات قصيرة

نرجو من الله التوفيق.[4]

[3] لقد كانت مجموعتنا (عندما تصبح الوحدة وطنا تحمل نفس الطريقة في النشر لذا نعتبر هذه المجموعة تتمة لسابقتها في طريقة العرض فقط وليس في نهج السرد الذي تبنى الفلسفة الفكرية والرمزية القدحة في معظم مواطن القص).

[4] تخرج هذه المجموعة في عامنا هذا 2026م بعون الله وتوفيقه.(الحقوق محفوظة).

محتويات المجموعة

إهداء.....3

تقديم(1).....4

تقديم(2).....7

بداية.....9

محتويات.....10

قصص قصيرة.....13

1–مفاتيح القلوب.. وحسرة النداء.....14

2–موقف سخيف.....19

3–التأقلم الخطر 21

4–عندما قتلت ابني اليهودي 23

5–حين تفتح الأبواب الموصدة.....26

6– قناع يوسف.....28

7–السياقة في المنحى الخطر.....32

8–عندما تحين الفرص.....40

9–عتبة الحريق والرماد.....38

10- أفقٌ بلا قيود.....45

11 منقوش في الذاكرة.....52

خواطر قصصية.....75

1–صانع الوعود وبريق الرمال.....58

2– العَلَق الأسود.. وحدود النور.....60**

3–صوتُ حَبِيب.....62

4- **صدى الحروف.. ومرارة القرار.....64**

5–أين أنتِ؟.....67

روايات قصيرة.....70

1- **أشجار السدر لا تبكي.....71**

2–عمى الروح.....75

3– عندما تكلم الجمعي.....83

4–نجاحات صغيرة.....102

5–كيف تعلم أنك راسب قبل أن ترى النتيجة؟.....111

6–صدى في خرسانة الأخطبوط.....117

ذاتية الكاتب.....123

1–قصص قصيرة

1–مفاتيح القلوب.. وحسرة النداء

كانت أمي تؤكد لي دائماً أن لكل روح مفتاحاً، وأن الحاذق هو من يعرف كيف يخاطب كل شخص بالمنطق والمفردات التي يفهمها؛ كي لا ينسد طريق، ولا ينبت خلاف. كنت أظنني أتقن رسم تلك المسارات، وأحسب نفسي فطِنة تدير بوصلة العلاقات بحذر ومنطق... حتى جاء ذلك اليوم الذي ازدحمت فيه الساعات بشغف لا يرحم.

خرجتُ من المنزل على عجل متجهة إلى اجتماع عائلي دافئ، وأنا أضع نصَب عيني جدولاً دقيقاً؛ إذ عليّ أن ألحق باجتماع آخر لا يقل أهمية. وقبل أن أطأ عتبة المكان، رنّ هاتفي برقم مجهول. رفعتُ السماعة ليأتيني صوت وقور:

" –أهلاً بكِ، معكِ الدكتور... من الجهة الفلانية، نودّ فتح آفاق التعاون مع مؤسستكم الموقرة"...

تأملتُ النبرة الرسمية، واستحضرتُ مفتاح التحاور المناسب، فاعتذرتُ بلباقة واختصار مرجئة الأمر لوقت أجمع فيه شتات تركيزي.

داخل الاجتماع العائلي، كانت الأحاديث تتداخل والأصوات تتعالى، وعندما هممتُ بالانسحاب تدريجياً لألحق بموعدي الثاني، باغتتني إحدى قريباتي بنظرة ملؤها الرجاء وقالت:

" –أريدكِ في أمرٍ مهم جداً"...

ابتسمتُ لها بمرونة واعتذرتُ سريعاً:

" —حسناً، ليس الآن... نؤكد الموعد لاحقاً".

تسللتُ خارجة ودخلتُ خضم الاجتماع التالي، حيث الأفكار المتلاطمة والمسؤوليات الحاضرة. وما إن انقضى الوقت وشيعتني الوجوه، حتى اقتربت مني الحكيمة "هاء" —تلك السيدة التي أحسبها عارفة بالله ينطق وجهها بالسكينة— وقالت بصوت هادئ يلفه غموض شفيف:

" —من الضروري أن أكلمكِ على انفراد"...

تركتني كلماتها في حيرة، وزاد الطين بلة أن ذاكرتي باغتتني فجأة بصورة ابني المسافر... ذلك الشوق القديم الذي يعصر قلبي، وكيف صرفتُ رغبته في زيارتي بالحسنى ورفضتها منطقياً خوفاً على مستقبله وظروفه. هل كان المنطق دائماً هو الخيار الصحيح؟ أم أنني أغلق الأبواب باسم اللباقة وحسن التدبير؟

بدأ حديث الروح يؤرقني وينكأ جراحاً غائرة وأنا عائدة إلى منزلي مشياً على الأقدام. كانت المساءات هادئة، والأفكار تتصارع داخل رأسي كأمواج تلاطم صخرة عاتية. وفجأة... وزلّت قدمي في حفرة لم أتبينها على جانب الطريق!.

سقطتُ أرضاً، وأحسستُ بأن أذىً حاداً قد ألمّ بقدمي، ألمٌ يمزق الكاحل ويسري في جسدي كالنار. التفتُّ حولي أبحث عن يد تمتد إليّ، لكن الشارع كان خاوياً إلا من المدى. وفي تلك اللحظة بالذات، دوت في الشارع المجاور صدمة معدنية مروعة؛ حادث مرور مروع حيث تداخلت سيارتان ببعضهما بغتة!

تعالت أصوات الرجال من بعيد وهم يركضون نحو الحادث يصرخون بفزع:

" —يا لطيف! يا لطيف"!

امتزج صراخهم بصرختي التي خرجت من أعماق وجعي:

" —يا رب"!

لكن أحداً لم يسمع ندائي... كانت العيون والأقدام كلها تتجه نحو الدخان المتصاعد من الحادث البعيد، بينما بقيتُ أنا متكومة على الرصيف البارد، بين ألم قدمي المصابة، وصدى كلمات قريبتي، وتأنيب حديث "هاء"، وطيف ابني الشديد القرب من قلبي والبعيد عن عيني، لو يدري كم اشتقت إليه، لكن صوت المنطق والعقل يجعلنا نتكئ على الوجع ونقول بعزة:

-كل منا مشغول بنفسه، سيأتي الوقت..

نواسي أنفسنا بها..

نظرتُ إلى السماء المتشحة بالسواد، ثم إلى هاتفي الذي سقط مني على بعد أذرع يضيء باسم متصل جديد... هل ياترى كان ذلك هاتف قريبتي؟ أم السيدة "هاء"؟ أم ابني الذي يناديه قلبي؟

مددتُ يدي المرتجفة بنشاط أخير ونحو الحافة المظلمة... و...

****

بين عتمة الطريق وضوء الشاشة

كانت الشاشة تومض في العتمة، ينبعث منها ضوء خافت يقاوم الظلام المتراكم حول الرصيف. تململتُ في مكاني وأنا أتحامل على ألم كاحلي الذي بدأ يتورم ككتلة من جمر. تلاحقت أنفاسي، وأنا أمدّ أصابعي المرتجفة إنشاً بعد إنش نحو الهاتف الملقى على الحصى.

كان صراخ الرجال عند الحادث البعيد يبتعد شيئاً فشيئاً في مسمعي، متحولاً إلى همهمات مبهمة، بينما كان صوت ضجيج أفكاري هو الأقوى والأعلى.

تذكرتُ كيف أتقنتُ طوال حياتي اختيار "المفاتيح" المناسبة للآخرين؛ كيف كلمت الدكتور بوقار رسمي، وقريبتي بوعود مرنة، وابني بأسلوب الأم الحريصة المنطقية التي تؤجل العاطفة لصالح المستقبل... لكنني تساءلتُ في تلك اللحظة الحرجة:

-هل استخدمتُ المفتاح الصحيح مع نفسي؟ أم أنني كنتُ أهدم بالمنطق ما تبنيه الروح؟

لماذا شيعتني السيدة "هاء" بتلك النظرة بالذات؟ هل كانت تلمح زلّة الروح قبل أن تزلّ القدم؟

وصلتُ بأطراف أصابعي إلى الهاتف. رفعته بشدة، وانعكس ضوء الشاشة على وجهي المتعب. لم يكن اتصالاتٍ مفقودة فحسب، بل كانت هناك رسالة نصية قصيرة وردت للتو...

تجمّدت عيناي وأنا أقرأ الكلمات الأولى، وامتزجت برودة الشارع بحرارة دمعة فرّت من عيني. وفي تلك اللحظة تحديداً، سمعتُ وقع أقدام تقترب بخطوات مسرعة من بين الظلال... خطوات شخص كان يبحث عن شيء ما في هذا الشارع المهجور.

حبستُ أنفاسي، ونظرتُ نحو الظل القادم، متسائلة إن كان نجاتي، أم مواجهة جديدة مع كل ما أجلتُه طوال اليوم...

****

أطياف العودة.. والرمز الأخير

توقف الزمن لبرهة. كانت الخطوات المسرعة تطأ الأرض بجواري، بينما كانت شاشة الهاتف تزاحم الظلمة بالنور الضعيف.

لم أستطع تمييز ملامح الظل القادم للوهلة الأولى؛ كانت أضواء سيارات الإسعاف البعيدة عند الحادث ترسم ظلالاً متراقصة على جدران الشارع. أغمضتُ عينيّ برهة وأنا أستحضر كل مفاتيح المنطق التي

طالما تسلحتُ بها: كيف أفسر للغريب موقفي؟ بأي مفردات أستنجد بها كي يفهم حجماً من الألم لا يُرى بالعين المجردة؟

حين فتحتُ عينيّ، كان الشخص قد جثا على ركبتيه بالقرب مني. انبعث منه صوت دافئ، لم يكن غريباً عن مسامعي، بل كان يتداخل مع كل الأفكار التي أرقتني في طريق العودة...

تطلعتُ إلى الشاشة في يدي من جديد؛ كان شريط الرسائل يظهر نصاً قصيراً لم أستكمل قراءته بعد، يتضمن كلمات تدعو للدهشة وتتقاطع بشكل عجيب مع ما قالته السيدة "هاء"، ومع لهفة قريبتي، ومع صوت ابني الذي تركته خلف البحار.

مُدّت إليّ يدٌ قوية لترفعني من الحفرة، وفي تلك اللحظة بالذات، سكن صراخ الرجال عند الحادث المروّع، وتوقفت نداءات الاستغاثة، وحلّ صمتٌ مريب ساد الشارع بأكمله.

رفعتُ رأسي أبحث في وجه المنقذ، وأمسكتُ بهاتفي لأقرأ الاسم الأخير المكتوب أعلى الرسالة...
وارتسمت على شفاهي ابتسامة تتأرجح بين الذهول والسكينة، بين المنطق والقدر.

2–موقف سخيف

عادت إلى الجلسة بعد طول غياب. لم تكن العودة مجرد حضورٍ في المكان، بل كانت استعادةً لألفةٍ قديمة. تخطت العتبة بخطواتٍ مطمئنة، وزلّت إلى مقعدها المعتاد تلقائياً، دون أن تلاحظ تلك «المحفظة» الرابضة على طرف المجلس، والتي كانت تعلن بفضولٍ عن ملكية أحدهم للمكان.

وما هي إلا لحظات حتى أقبلت صاحبة المحفظة قادمةً من أروقة البيت المبارك. لم تنتظر، ولم تتثبت، بل شرعت في إطلاقِ جُملٍ متناثرة، تفوح منها نبرة الاستنكار والادعاء، وكأن حَرَمَها الخاص قد أُوذِيَ.

تدارك الحضور الموقف بنجاحٍ وأدب؛ انكسرت الأبصار لنظراتٍ متهيبة، وتبودلت همساتٌ خافته تنقل الاستغراب بين الأعين، قبل أن يعلو صوتُ الاعتذار الشفيف نيابةً عنها:

—إن الأستاذة اعتادت الجلسة هنا...

لكن الصوت الغاضب لم يتوقف، ولم يرعَ لحرمة المكان ولا لحضور أهله. تهامس بعض الجالسين بأكتافٍ متقاربة ولفتاتٍ خفية تُنكر هذا الزجر بلا حجة.

عندها، نهضت الأستاذةُ في هدوءٍ تام، وتركت المكان بأناقةٍ بالغة قائلة: «تفضلي.«...

غير أن الأخرى، وقد أربكها النبل، رفضت أن تجلس. أشارت السيدة المباركة بيدهِا الرؤوف للأستاذة كي تعود إلى مقعدها، لكن الأستاذة آثرت ألا تُعكر صفو الجمع، ورفضت العودة بابتسامةٍ هادئة.

ساد الصمت لبرهة، وشخَصت الأبصار بين زوايا المجلس، تعكس حيرة مكتومة وإدراكاً صامتاً من الحاضرين لما جرى.

مضى الوقتُ غريباً ثقيلاً. كانت السطورُ تُقرأ من ذاك الكتاب، والكلمات تتردد في الأرجاء، بينما كانت العيونُ الغاضبة تسرقُ اللحظات لتسترق النظر نحو الأستاذة... تفحص ملامحها، وتبحث عن أثرٍ للغضب أو الخيبة، وكأنها تتغذى على انفعال الآخرين. لكنها لم تجد سوى سكون الجبال، فيما تنقلت أعين الحاضرين في صمتٍ بين الوقار المترفع والصخب المفتعل.

وانتهت الجلسة.

قامت الأستاذة، ومضت بكل ثقةٍ ووقار، تُسلّم وتستأذن الجميع، تاركةً خلفها أثراً عبقاً من مشاعر الإعجاب والمهابة...وسط دهشة الأخرى..

قصةٌ قد تبدو سخيفةً في ظاهرها، لكنها كانت مرآة كشفت الفارق الدقيق بين نُبلِ النفوس الكبيرة، وهشاشةِ الراقيين اليتامى.

3–التأقلم الخطر

كانت تمضي في دروب الحياة بخطىً محمومة وعزم لا يلين، تلاحق غاياتها بقلب لا يعرف المستحيل؛ فإن لم تدرك كل ما أردت، أدركت نصفه فرضيت به واستأنفت المسير.

غير أن هدوء السنين العابرة أخذ ينسلّ إلى أركانها بتؤدة؛ تسربت القيود إلى تفاصيل يومها، وتحول صبرها المرن تدريجياً إلى "تأقلم خطر" خنق جذوة المبادرة في روحها، حتى غدا التردد والاحتياط الزائد ديدنها المعتاد، باختصار لم تعد هي..

لماذا في مجتمعنا نحبط النشيط وننشط الكسول؟هل تكلم زويل مرة عن تلك الحالة؟

وفي مساء دافئ، كانت تجلس في ركنها المعتاد تحيط بها سكينة البيت الهادئ، حين ارتفع صوت جرس الباب. فتحت ليفاجئها ابنها القادم من سفره الطويل دون ميعاد؛ كان وجهه يشرق بهمتها وإرادتها التي غرسَتها فيه منذ صغره، محتفظاً بالذكريات الجميلة التي طالما استمد منها قوته في الغربة.

بعد أن استقر به المقام وتبادلا أطراف الحديث، أخرج هاتفه وهو يبتسم قائلاً:

–أمي، وجَدتُ هذا المقطع القديم بالصدفة أثناء ترتيب ملفاتي، أردتُ أن نراه معاً.

أنارت الشاشةُ ظلمةَ الركن، وظهرت هي قبل عشرين عاماً؛ كانت تقف بحزم وثبات في موقف عصيب، تتحدث بنبرة واثقة يملؤها اليقين، وتتخذ قراراً جريئاً دون شائبة من تردد أو خوف. كانت تعبر الصعاب كما يعبر الفارس ساحته، لا تطأضئ رأساً ولا تلتفت للوراء.

جمدت عيناها على الشاشة. نظر إليها ابنها بإعجاب شديد وقال:

-طالما استمددتُ قوّتي من هذا الثبات يا أمي... أنتِ دائماً ملهمتي.

ابتسمت له باقتضاب، لكن كلماته نزلت على روحها كالصدمة؛ أحدثت المكتسبات القديمة في شريط الفيديو شرخاً عميقاً في جدار التردد الذي سورَت به نفسها على مدى سنين. تساءلت في سرّها وذهولها يمتد بين الأمس واليوم:

-أين ذهبت تلك المرأة؟ وكيف ارتدت حُلّة الحذر والتردد تحت مسمى التكيف والتأقلم؟

استأذنت وغادرت إلى غرفتها، وقفت أمام المرآة تطالع ملامحها أطول مما اعتادت.

تمسح على جبينها وخديها وتدقق في تفاصيلها وكأنها تزيل شائبة شوهت المظهر...

لم يكن الخطب في السنين ولا في الشيب الذي خالط شعرها، بل في ذلك "التأقلم الخطر" الذي سلبها جسارتها وأوهمها أن الهدوء هو الأمان.

أغمضت عينيها لبرهة، واستحضرَت نبرة صوتها القديمة وهي تتنفس بعمق. حين فتحت عينيها، لم تكن النظرة هي ذاتها؛ لقد أدركت أن الإرادة لم تمُت، بل كانت غافية تحت ركام الاعتياد، وأن حقيقة المرء لا تغيب ما دام في الصدر قلب ينبض بالوعي.

مسحت غبار السنين عن إرادتها، وابتسمت لمرآتها بابتسامة الواثق؛ لقد حان الوقت لتعود .. حان الوقت.

4–عندما قتلت ابني اليهودي

–نعم أرسليها لي فورا من فضلك..

–هل تعد هذه سرقة لها؟

–بل إنقاذ لها ولصديقتنا المسكينة..مازالت تبحث عن رائحته حتى اهترأت ملامحها..... دققي النظر في جهها...كفاها حرقا بروحها فنرحم دموعها التي لاتجف...وننقذها ما هي فيه الآن..

كانت تعتقد بداية أنه حي ..ودفعت كل ثمين لأجله...ثم تبين بعد ذلك..أنه مات..والآن بعد التحرير يظهر ثم يختفي...مالأمر؟

–حسنا سأصورها لك في الواتس

–هما سطران فقط:

متى ستعد؟

أو لاتعد سيان...

– نعم فقط سطران..الورقة الثانية أخطر

–هاتي لأرى

–لقد أنفقت لأجل إخرجك من سجنك منزلا ورثته عن والدي، ودكانا ورثته عن والدتي..ومالا وفيرا جمعته عبر مشوار العمر وأنا أعمل في تجميل النساء. وأجني مالا معقولا...لقد سرقت عمري كله..وسرقوك مني ..ولم تعد..

****

عندما كنا في تلك الرحلة معا..كانت قد تركت عائلتها لتسافر وحدها وتسري عن نفسها.. دفعها زوجها كي ترتاح قليلا وتنسى..ويرتاح كذلك من نشيجها المستمر..

-ماذا تنسى؟

-تنسى كيف أمضت ثماني سنوات تلاحق اسم ابنها لتعرف أنه حي أم ميت بعد تحرير سوريا..

-تماما وفوجأت بأنه حي...

-لكنها بقيت تبكي طول الرحلة وتقلب صوره...والعمليات الجراحية التي قام بها فخورة به...

-فمالذي تغير؟

-تغير أنها الآن في السجن..

-ماذا؟

-وجاري التحقيق معها...

-لماذا؟

-يتهمها زوجها بأنها قتلت ابنها الوحيد..

-مستحيل..ماذا تقولين..

-نعم وهي تدعي أنه فور خروجه من السجن رحل للجولان والتحق ب...

-مستحيل...

-لا ليس مستحيلا...

-أنت تتهمينها..

- كم فعلت..لترجعه عن انحداره عبثا..ماذا حدث؟ بل من فعل بل؟؟؟

-ماذا فعلت ؟ والله أنت تبتلعين نصف الكلام..لاداع لهذا الآن اصرخي قولي بحرية نحن نتعامل بالدولار

الآن..لذا لاضير من الإفصاح فكيف آتي معك إليها وأنت تخفين علي جل التفاصيل..؟

-هيا بنا نزورها..هذا واجب..بل مهم ربما ساعدناها....نلتقي بها ..لاجديد..تيقني..المهم أن نساعدها فالامور حاليا باتت أهون وأيسر..

****

كان المدخل أنيقا جدا..تفوح منه رائحة الطهارة والتقى..

كان مدخلا ليس ككل ماعرفناه..وكأنه مشفى ..بل منتجع...

-لاأظن أنها ستظلم..

-مالذي يؤكد لك ذلك؟

-الحفاوة التي نحن بصددها..والترحيب والسؤال المهذب...وفي مكان كهذا..كان يصدر عنه صراخ بشري مميت..ودماء بشرية تسيل بلا سبب...وظلم استشرى حتى أحرق الأرواح...

وقلة الحيلة التي تسري في العروق..وشعور الازدراء العرقي المهين...مؤكد بات للعدالة هنا جناحين..ورأسا وطريق واحد....لم يكن هناك من داع لحضوري كما رايت سوى فضولي الذي أمسك بيدي فذهبنا معا وهي تخشى الدخول وحدها....

عندما خرجنا..كنا نبكي فعلا..لم تكن هي التي عرفناها..لا لم تكن...لقد غدت أكثر صحة وسكونا...ولكن...

كنا نبكي ..عليها ومنها وفيها..كنا نبكي نبكي بحرقة..كنا نبكي على عمر ضاع من جديد..

-يبدو أنها أضاعت من جديد وضاعت معه...

-لا الأمور بخير..

-كيف سأفهمك؟ ولكن ليس الآن..

5-حين تفتح الأبواب الموصدة

كنا صغارا نلعب معا ونشعر بمشاعر بعضنا حتى لو بعدت المسافات..ألا وأننا افترقنا وابتعدت مشاعرنا فهل غدا الصديق أقرب من القريب؟كيف حدث هذا؟«

هكذا كان "يوسف" يحدث نفسه وهو يقلّب تلك الصورة القديمة المصفرّة، حيث يظهر فيها جنباً إلى جنب مع رفيق طفولته "سليم". كانت السنوات الخوالي تمتلئ بضحكات تملأ المدى، وبخيط خفيّ من التخاطر يربط بين قلبيهما؛ فإذا حزن أحدهما في أقصى الحي، استشعر الآخر غصةً في صدره وكأنه يعيشها بنفسه.

لكن الأيام لم توفِ بعهودها. عصفت رياح الحياة بالجميع، وكلّما تقدّما في العمر، اتسعت الهوة بينهما. افترقت الطرق، وبدلاً من أن تكون المسافات مجرد أرقام، تحولت إلى جدران سميكة من الجليد التهمت ذلك الدفء القديم.

تُرى، كيف حدث هذا الانفطار البطيء؟ وكيف غاب ذلك الشعور العفوي ليحلّ مكانه صمت ثقيل؟

بينما كان يوسف غارقاً في تساؤلاته أمام مقهى قديم في أطراف المدينة، قطعت تأملاته امرأة مسنة ذات ملامح طيبة تُدعى "العمّة مريم"، وهي جارة قديمة كانت ترقب طفولتهما وتعرف سرّ رابطهما العجيب. جلست بجواره، وألقت نظرة خاطفة على الصورة بين يديه، ثم ابتسمت بهدوء وقالت:

" ـــما زلت تسأل كيف امحت الأيام ما بينكما يا يوسف؟"

نظر إليها يوسف بدهشة، فأكملت بصوت دافئ كألحان كمان عتيق:

—"القلوب لا تبتعد بسبب المسافات، بل بسبب الركود. القريب يظل قريباً بحكم الدم والواجب، أما الصداقة فهي شجرة تحتاج إلى أن تسقيها بالاهتمام والبوح. حين صمتّما ظناً منكما أن التفاهم القديم يكفي وحدَه، نمت الخلافات الصغيرة في المساحات بينكما دون أن تدريا".

ثم أخرجت من حقيبتها رسالة قديمة مطوية، لم تُفتح من قبل، ووضعتها بين يديه قائلة:

" —هذه الرسالة كتبها سليم لك قبل أن يغادر المدينة منذ سنوات، ولم يجد الشجاعة ليعطيك إياها".

تسمّر يوسف في مكانه، وندت منه تنهيدة عميقة وهو يمسك الرسالة. أدرك بعدها أن الحقيقة لا تُقرأ على الورق، بل في العيون؛ فقرر أن يتجاوز كل شيء ويذهب ليلتقي به.

حبس يوسف أنفاسه وهو يقف أمام باب منزل سليم القديم. رفع يده وطرق الباب. كانت كل طرقة تبدو وكأنها تعيد نبضاً منسياً لتلك الأيام الخوالي.

فتحت الباب يدٌ أتعبتها السنون، وظهر سليم. تغيرت ملامحه، وخطّ الشيب شعره، لكن عينيه ظلتا كما هما، تحملان ذلك البريق العاطفي القديم.

توقفت اللحظة. صمتٌ ثقيل خيّم على المكان، مشحون بالشوق والعتاب الصامت. نظر سليم إلى يوسف بدهشة، ثم أطرق رأسه قليلاً وقال بصوت خنفته العبرة:

" —كنت أعلم أنك ستأتي يوماً.. حتى وإن تأخرت كل هذه السنين".

خطا يوسف خطوة إلى الأمام، وسقطت كل الجدران الجليدية في لحظة واحدة. لم تكن هناك حاجة لتبريرات طويلة؛ فقد أدرك كلاهما أن القريب تحظى به بحكم القدر، أما الصديق الحقيقي – مهما طالت الغيبة – فيظل ينبض في أعمق زاوية في الروح، ينتظر فقط من يطرق الباب ليحيي الوصل من جديد.

6- قناع يوسف

قصة قصيرة(فلسفية رمزية)

1. صمت في الصف الأول

لم تكن صدارة يوسف في مجلس المعلم هبة عابرة ولا رمية بغير رامٍ، بل كانت بناءً دقيقاً أقام أركانه عبر سنوات من الانضباط الصارم والسهر المضني.

في ذلك المجلس الفكري الهائل، حيث تتنافس العقول وتتسابق الأقنعة لتلفت أنظار النخبة، كان قناع يوسف هو الأكثر إتقاناً؛ مصمماً بعناية فائقة ليعكس يقيناً مطلقا، وحكمة لا تشوبها شائبة، ونبرة صوت موزونة كأنها مقطوعة موسيقية حذرة لا تحتمل النشاز.

كان يجلس دوماً في منتصف الصف الأول. ينظر إليه المعلم—ذلك العقل المفكر الذي تدور حوله الأفكار—بعين الرضا الكامل، معتبراً إياه النموذج الحي لكل ما تمثله القمة.

لكن ثمة همسة واحدة كانت تحفر في باطن روح يوسف كالإبرة، جملة قالتها له زميلة قديمة يوماً وهو يبتسم ببرود:

- «أنت مخيف يا يوسف.. مخيف جداً!»

لم يستوعب كلماتها حينها، ولا سأل لماذا.. هل يخشاه الناس لأنه لا يخطئ؟ أم لأنهم لا يرون فيه سوى جدار من زجاج صلب لا منفذ فيه للضعف؟

كان يوسف ينظر إلى يديه المرتجفتين تحت الطاولة، ويهمس لنفسه كلما تملكه التعب:

«القمة ليست مكاناً نصل إليه فحسب، بل هي قناع نحافظ عليه ليبقى العالم مطمئناً لرؤيتنا في المقدمة.»

2. لحظة الصدع الكبير

في تلك الليلة الماطرة، وتحت أضواء القاعة الكاشفة، عقد المعلم مجلسه السنوي الكبير، واحتشد المئات ليستمعوا إلى ردود الصف الأول على أعتى الأسئلة الفلسفية والحياتية.

كان يوسف يجيب بثقة، يمارس أستاذيته المحبوكة، ويوزع الإجابات بحكمة إلهية زائفة. حتى وقف رجل في أواخر القاعة، رجل بائس المظهر، ألقى سؤالاً لم يكن في الحسبان، سؤالاً لم يتصل بالمجلدات ولا بالمنطق، بل بالوجع الإنساني المباشر:

– «يا يوسف.. تحدثنا طويلاً عن الصبر واليقين، فقل لي: كيف يتجاوز المرء شعوره القاتل بأنه غريب ومكسور، وهو يعيش وسط أهله ولا يجد من يفهمه؟»

ساد صمت مطبق في القاعة.

فتح يوسف فمه ليورد مقولة للحكماء كعادته، لكن صوت الحكماء خذله. جف حلقه، وتجمدت كلماته. تزاحمت في ذهنه صورة أمه، وتذكره لطفولته الوحيدة، ومرارة الخيبات التي طالما دفنها تحت ثيابه الأنيقة.

لأول مرة في حياته، لم يجد إجابة.

شعر ببرودة غريبة تسري في أطرافه. وتلاشت تلك الصورة البلاستيكية المثالية؛ فتصدع القناع الصارم وتناثرت أشلاؤه على أرض القاعة.

طأطأ يوسف رأسه منتظراً الهواية، متوقعاً صيحات الاستهجان، ونظرات الخيبة من أولئك الذين آمنوا بصورته الأسطورية. ظن أن الطرد من الصف الأول بات محتوماً، وأن سيرته قد انتهت للتو.

3. الحقيقة خلف الرماد

تراجع الحاضرون في المقاعد الخلفية بخوف واستغراب. لكن المعلم—الذي كان يرقب المشهد بهدوء عميق—نهض من مقعده بخطوات هادئة نحو منصة يوسف.

لم يلتفت المعلم إلى شظايا القناع الملقاة على الأرض. مد يده الدافئة لتلامس كتف يوسف المرتجفة، ونظر مباشرة إلى عينيه الدامعتين بلا حماية ولا تجمل.

قال المعلم بصوت هادئ ومسموع للجميع، تنبعث منه رحمة صريحة:

– «لقد أرهقك القناع يا يوسف طويلاً.. أردتَ أن تكون أسطورة من زجاج، بينما أردنا نحن إنساناً من لحم ودم.»

ثم التفت المعلم إلى الحضور وقال:

– «إن الحكمة الحقيقية لا تبدأ عندما نملك جميع الإجابات، بل عندما نملك الشجاعة لنعترف بعجزنا وإنسانيتنا.»

4. حرية الصف الأول

أشار المعلم بيده إلى المقعد الوثير في الصف الأول.

في تلك اللحظة، أشرق الإدراك في عقل يوسف وقلبه؛ لم يكن وجوده في المقدمة مديناً للقناع الخدّاع ولا للادعاء، بل لعمق فكره الحقيقي، وشجاعته النادرة في مواجهة ذاته حتى وهو يسقط.

جلس يوسف مجدداً في الصف الأول، لكنه هذه المرة لم يكن يرتدي شيئاً ينفصل به عن الناس.. كان عارياً من الأكاذيب والتصنع، واثقاً بنفسه، وحراً للمرة الأولى في حياته.

تنفس بعمق، ونظر إلى الرجل السائل في القاعة وقال بصوت دافئ ينساب بصدق:

– «أنا لا أملك إجابة جاهزة من الكتب يا أخي.. لكنني أعرف ذلك الشعور تماماً، فقد عشته طوال عمري خلف هذا القناع.. تعال نتحدث معاً بعد الجلسة كإنسانين مكسورين يبحثان عن الضوء.»

علا التصفيق في القاعة، وبينما كان يوسف يبتسم بركود وطمأنينة، كان يحدث نفسه مكرراً كلماته الأثيره:

– «كن إنساناً حقيقياً ولو لمرة واحدة في عمرك.. فكثرة التجمل والتزين تترك الروح عارية تماماً.»

تمت بحمد الله

د. ريمه عبد الإله الخاني

7– السياقة في المنحنى الخطر

(فلسفية رمزية)

–البداية: المقود والمحاولة الأولى

لكل مرة أولى رونقها الذي لا يتكرر.. سواء أخطأت فصححت.. أم كنت في الطريق القويم فانحدرت.. فالعيون يختلف نظرها... والإحساس يزداد شفافية.. والدرس يصبح مسلمة..

كانت المرة الأولى التي يتركني أقود السيارة وحدي.. لقد تعبت من سخريته وتثبيطه لي.. فكان لزاماً علي رفع الطوق الذي يخنقني لأفعل أخيراً... كسياقة الحياة عندما تفيق على عائلة لا تعيش دونك.. فتصبح مسؤولاً عنها بحذافير الحياة...

جلست وراء المقود.. أحاول تشجيع نفسي للانطلاق الأول.. ضحكت من نفسي عندما عنّ على خاطري في تلك اللحظة الحرجة أن أدون شعوري المختلط هذا.. بين الشجاعة والخوف.. بين الحذر والاندفاع.. بين المحاولة والتقاعس.. بين التردد والقرار..

ليس صحيحاً أن نغطي خوفنا بطلاء العزلة.. وليس صواباً أن نبقى نعتمد على تشجيع الآخرين.. تلك الرواية التي دفعتني دفعاً لأكتب.. ما اسمها؟ لن أبوح الآن، انتظرني قليلاً... انتظر حتى أشرع في السياقة.. فقد تعودت على فعلها في أول خيط فجري لأتجنب الزحام، لكنني فعلت الآن.. ماذا لو حاصرتني السيارات والدراجات النارية؟ طبعاً أغلق كل شيء وأهرب...

ما أجمل قلم الرصاص.. تكتب وتمحو.. تغير مصير الكلمة.. حتى لا تقع.... هو الاستغفار ممحاة الحياة فلأبدأ به وأنا في خضم السياقة..

–في الطريق والتحويلة المفاجئة

خرجت من منزلي معبأة طعاماً وشراباً.. وكأنني سأذهب إلى الصحراء.. وكلما كنت في موقف جديد يقفز في ذهني أن الحمد لله لم أدخل الهندسة، فتلك الدراسات العلمية تبقى تخدم المجتمع ولكن قيادة المجتمع تبقى للدراسات الحقوقية والاجتماعية والأدبية والعلوم السياسية والشرعية ليتهم يفهمون، تلك الزمرة التي تصلح لذلك. فلم يجعل المهندسون والأطباء في أعلى القائمة الدراسية.. وأصعبها عند القبول في الجامعات؟

كان كل شيء على ما يرام حتى اعترضت طريقي فجأة لافتة برتقالية كبيرة تحذر من إغلاق الشارع، وتفرض تحويلاً إجبارياً نحو فرع ضيق لم أره من قبل.

–يا الله كم هو ضيق.. لم يدربونا على ذلك في مدرسة السياقة.

توقف نبض قلبي للحظة، وتزاحمت في رأسي صور الدراجات المسرعة والسيارات التي تتسابق خلف المنعطفات. كدت أستدير هاربة كما وعدت نفسي سابقاً أن أفعلها يوماً، أترك السيارة حيث أنا وأمضي، لكن شيئاً في داخلي انتفض؛ تذكرت أنني لم أخرج لأهرب، بل لأكسر طوق التردد. ضغطت برفق على المكابح، وغدوت أقود بسرعة مناسبة، وتذكّرت أن قلم الرصاص يملك ممحاة، وأن "الاستغفار هو ممحاة الحياة". استغفرت ربي، وأخذت نفساً عميقاً، فأنا أقود بهدي الرحمن.. هكذا واسيت نفسي، وأدرت المقود بثبات نحو الطريق البديل.

ولكن ما علاقة الممحاة بالسياقة؟ بل ما علاقة الاستغفار بما أفعل؟ ما شاء الله على أفكاري.. قفزت قطة في وجهي هاربة رغم عدم سرعتي، فتوقفت فجأة لا أدري كيف، واصطدمت السيارات خلفي تباعاً.. يا عيني مأزق جميل جداً..

-المواجهة في الشارع الضيق

شرع يصرخ وسط دهشتي وحيرتي ماذا أقول:

- "قلت لكم لا تعطوا السياقة للنساء.. جبناء.. حذرات زيادة عن الطبيعي.. بطيئات ليس لديهن بديهة سياقية.."

تراكمت السيارات خلفي كأنها قطار بلا نهاية، وارتفعت أصوات أبواق التنبيه لتخترق سكون الصباح. شعرت أن الدماء تحجرت في عروقي، وأن "المنحنى الخطر" الذي تخيلته مجرد شارع ضيق، قد تجسد حقاً في هذا الموقف المعقد.

لكن وسط هذا الصخب، وتلك الكلمات القاسية التي اعتادت أن تطرق أذني من كل مبطّط ومحبط، تذكرت درسي الأول اليوم: "ليس صحيحاً أن نغطي خوفنا بطلاء العزلة، وليس صواباً أن نبقى نعتمد على تشجيع الآخرين".

أخذت نفساً عميقاً، ولم ألتفت لصراخه أو تعليقاته النمطية الجاهزة التي تصنف النساء خلف المقود بعين الاستهانة. فتحت باب السيارة بهدوء مدهش، وكأنني لست سبب هذا الازدحام المروري الخانق. تقدمت نحوه بخطوات ثابتة، بينما خفّت أصوات الأبواق كأنما دهشت لجرأتي غير المتوقعة.

نظرت إليه بعينين يملؤهما الهدوء، وقلت بصوت حازم وهادئ:

"السلام عليكم.. الحذر يا سيدي ليس جبناً، بل هو احترام لحياة الآخرين. والتحويلة المفاجئة لم أصنعها بيدي، بل فرضها الطريق تماماً كما تفرض الحياة أقدارها علينا. أما البديهة السياقية، فلا تقاس بالصراخ، بل بحسن التصرف عند المنعطفات."

صمت الرجل مذهولاً، وتراجع خطوات للوراء كأنه لم يتوقع مواجهة بهذا الثبات من امرأة تقود للمرة الأولى وحدها. وفي تلك اللحظة الحرجة، أدركت المغزى العميق من رحلتي؛ السيارة لم تكن سوى رمز لحياتنا، والطريق الضيق والقطة المفاجئة والازدحام كلها اختبارات لصقل الروح.

عُدت إلى مقعدي، أدرت المحرك بهدوء، وأكملت طريقي بابتسامة نصر خفية. الآن فقط عرفت اسم الرواية الحقيقي التي كنت أبحث عنها... إنها رواية "سياقة في المنحنى الخطر"، حيث لا نكتشف مهارة القيادة وحدها، بل نكتشف أنفسنا من جديد.

-الوصول المفاجئ: دار المخطوطات

لم تكن تلك الرحلة تنتهي عند تجاوز ذلك الصخب المروري وصراخ السائق المتسرع. بعد أن استأنفت مسيري، شعرت كأن الهواء داخل السيارة أصبح أنقى، وأن الرؤية أمامي قد اتسعت أضعافاً مضاعفة.

مع امتداد الطريق البديل وضياع المعالم المألوفة التي كنت أعرفها، وجدت نفسي أسلك انعطافات لم أخطط لها قط. كان التركيز ينصب كاملاً على إبقاء المقود ثابتاً وعلى الاستغفار الذي منحني هدوءاً غريباً وسط التوتر.

وفجأة، توقفت التحويلات المرورية وانكشف الطريق، لأجد نفسي أمام بوابات مبنى قديم ذي طابع معماري رصين، تحيط به أشجار كثيفة وسكون مهيب. لم يكن هذا الطريق يؤدي إلى وجهتي التي خرجت لأجلها صباحاً!

ترجلت من السيارة ببطء، وأنا أنظر إلى لافتة رخامية عتيقة عُلّقت على المدخل: "دار المخطوطات والوثائق التاريخية والأدبية".

ابتسمت بدهشة؛ كيف قادتني سيارة أبديت خوفي منها، وعبر منعطفات فرضتها أخطاء الطريق، إلى هذا المكان بالذات؟ المكان الذي يحوي بين جدرانه ألوف القمم الأدبية والفكرية التي طالما آمنتُ بأنها هي من تقود المجتمعات وتصلحها.

خطوت ببطء نحو الداخل، استقبلني عبق الورق القديم ورائحة الحبر المعتّق. جلست على طاولة خشبية عتيقة، وأخرجت من حقيبتي دفتر ملاحظات صغير وقلم رصاص مدبب... بدأت أسطر أولى كلمات هذا الفصل الجديد، شابةً تؤمن أن أعمق الدروس تولد دائماً... خلف المنحنيات الخطرة.

–سرّ المخطوطة والمفاجأة

بينما كنت أغلق دفتري، وقعت عيناي على مخطوطة مغبرة موضوعة في طرف الرف الأخير. اقتربت منها بحذر، وسحبتها بهدوء. كانت تحمل عنواناً باهتاً خطّ بحبر قديم: "شجاعة البدايات: عن قيادة الذات والمجتمع".

فتحت الصفحة الأولى، لتسقط منها ورقة مطوية صغيرة. أخذتها وفتحتها بسرعة، وكانت الصدمة المذهلة! كانت الورقة تحوي خط يد مألوفاً جداً... إنه خط ذلك الشخص نفسه الذي طالما سخر من قدرتي على القيادة، السائق الغاضب الذي واجهته في الطريق منذ ساعات!

قرأت السطور الأولى المكتوبة بخط يده قبل سنوات طويلة:"خفتُ أن أقود الحياة وحدي، فتركت المقود للآخرين وصِرت أصرخ في وجوههم كلما تعثروا، خشية أن يكتشفوا أنني لم أجرؤ يوماً على المحاولة..."

تسمرت في مكاني. الرجل الذي اتهمني بعدم البديهة كان يهرب من خيبته القديمة. أعدت الورقة إلى المخطوطة، وأمسكت بمقود حياتي بثبات لا يزول.

–الظهور الغريب وتحذير السارقين

توقفت حركة الهواء داخل القاعة الخشبية العالية، ووقع صمتٌ ثقيل. من بين ظلال الرفوف الممتدة، خرج ظلّ طويل لجسدٍ تلتفّ حوله عباءة داكنة اللون، تُخفي ملامحه ولا يبدو منه سوى عينين تتقدّمان ببريقٍ غامض.

مشى بخطواتٍ موزونة حتى وقف في منتصف القاعة، وتحدث بصوتٍ عميق يتردد صداه بين الرفوف العتيقة: "كيف بُني هذا البناء الشاهق؟! ينظر الناس إلى الشموخ والهيبة، ولا يعلمون أن كل حجرٍ هنا قُدَّ من الصبر... ولكن، كم هو محزن! كم سُرِق من هذا المكان من درر المخطوطات ونفائس العقول كلما دخله غافلٌ أو طامع، دون أن يشعر به أحد!"

ثم واصل كلامه بنبرةٍ تحذيرية يكتنفها الرهبة: "ما زال المكان يحمل أسراراً لم تُفتح طلاسمها بعد، ولم يهتدِ إلى سره الكبير أحدٌ... ولن يهتدي! فلا تكن أحد السارقين! فربما نالك من الأذى واللعنة ما لا تطيق تحملَه..."

وانساب بين زوايا الرفوف والممرات الضيقة لتلتهمه الظلال.

-الضياع والمواجهة الأخيرة

لم أعد أدري هل أكمل جولتي أم أتوقف والفضول ينهش روحي.. لقد نسيت من أين أتيت ولماذا وكيف تأخرت وعلي العودة ولكن كيف؟

مشيت بحذر وهدوء لأصل لباب الخروج رغم أنني لم أشبع من استعراض المخطوطات... لكن شيئاً ما فاجأني.. أين السيارة؟

خرَجتُ فإذا بالساحة قد تبدلت تماماً وطريق ترابي يضيع في ضباب كثيف. انتابني خوف عميق وشرعت أحاول الدوران حول البناء مؤكد ركنتها في جهة ما، لكن الجدران تمتد وتتسع.

قلبت ما تحويه محفظتي على الأرض فما وجدت المفاتيح كذلك.. وإذا بالمفاتيح تربض بجمود فوق حجر قديم بين الأعشاب اليابسة!

وفجأة، ظهر لي ذاك الرجل من جديد، رَمَى لي مفتاح سيارتي وقال لي بصوت حاسم:

- "لا تعودين لهذا المكان بعد ذلك..."

قفز في ذهني رد ماكر وسألته:

- "من هو السارق؟ أنا أم أنت؟"

فأجاب بابتسامة غامضة وخافتة وهو يختفي في الضباب:

- "كلنا سارقون بطريقة ما..."

ومع اختفائه، انقشع الضباب وانكشفت سيارتي واقفة في مكانها المألوف. ركبت السيارة، أدرت المحرك، وأمسكت المقود بيديّ الثابتتين.. أدركت تماماً أننا لا نكتشف مهارة القيادة وحدها، بل نكتشف أنفسنا ونقود أعمارنا بنجاح وسط كل المنعطفات الخطرة.

8–عندما تحين الفرص...

"– دعي الله يجمعنا..."

عبارة تحفر في ذاكرتي أخاديد عميقة، لا سيما حين التقيتها بعد سنوات كما وعدتني. قالت لي حينها متسائلة:

- "لقد حققتِ ما تمنين لي وتطلبين... هكذا وصلني حقي وصرتُ نجمة القرآن في المجتمع. ولكن.. لماذا فكرتِ هكذا؟ ولماذا لم تفعلي ككل الناس بتبادل أرقام الهواتف للتواصل؟ كيف تجدين تعارفنا؟ ولماذا تعارفنا على غير العادة؟ وكيف نظرتِ إلى علاقتنا جيرانَ لسنوات طويلة؟"

أسئلة ظلت هاجعة في ذاكرتي نائمة لم تصحُ بعد، مضى عليها خمس وعشرون سنة!

ولمللتُ أغراضي عائدةً لبلادي، بعد رحلة قاسية أسعفتُ فيها ابنتي المريضة، التي تركت أولادها الصغار مع والدهم الذي حصل على إجازة لأجلهم، فـ"العمل لا يرحم، وإلى متى الإجازة؟". قالت لي ابنتي وهي تتوق إلى العودة لمنزلها:

- "لقد كان السائل السكري يسري في العروق يا أمي، يحرمني الطعام طويلاً.. هل نسيتِ كيف نمضغ اللقمة؟ يا لها من نعمة!".
- كانت المشفى في نظري قبرا...سجنا بلاهواء..حياة بلا روح..

والآن، وبعد شهر من العناية المكثفة، بات لزاماً عليّ العودة لزوجي وأبنائي الذين ينتظرونني في رمضان الاستثنائي. كانت أصوات الانفجارات تملأ الجو، فأتساءل بعفوية وألم:

- "لماذا لا يهدأ هذا الكوكب الناري؟ هل من الطبيعي أن يصنع الإنسان السلاح ويفرغه في قلوب البريئة وغير البريئة كي يحصلوا على الأرباح؟ لماذا لا يخترع الإنسان مهنة تجلب الربح بسلام؟ ما هذا الكائن المتفجر؟ ما هذا الذكاء النجس؟".

ودوت صفارات الإنذار في المطار، وخرج كل المسافرين من طائراتهم كيوَم القيامة تماماً، بانتظار استلام حقائبهم والعودة من حيث أتَوا. وبعد انتظار نصف ساعة، سُمح لنا بالسفر من جديد إلى الأردن، ومنه إلى دمشق براً.

وعلا صوت الدكتورة سوسن على متن الطائرة:

- "لا أريد الجلوس هناك، غيروا لي المكان...".

فجلست قربي، وألقت التحية بكل أدب وابتسام. وبعد التعارف المعتاد من مهنة واختصاص وعائلّة وطموح، همست لي قائلة:

- "انظري.. هؤلاء إسرائيليون عائدون لفلسطين. انظري كيف يتكتلون في هذا الجانب من الطائرة، ونحن في الجانب الآخر منها؛ لا يلقون السلام ولا التحية، عيونهم تتكلم بكلمات غريبة، ومحاجرهم تخفي دماً، وأذرعهم ضعيفة جداً لكن محافظهم ثقيلة!".

ربما لم أستوعب مقصدها تماماً، لكن ما وصلني هو أنهم أشخاص يحملون وزر هاربين، يتجول بعضهم على متن الطائرة بصمت ووجوم ملفتين للنظر، وكأنهم يريدون القول شيئاً. ليتجول بعدها بعض الفلسطينيين كذلك، وكأنهم يتجادلون ويختلفون بلا كلام.. حتى همست لنفسي: *"لو استطعت لـ.. ولكن الموقف لا يتحمل"* .

هبطنا بعد حديث طويل استسغت بعضه، وبعضه الآخر لم أفسره فركنته جانباً. وقبل مفارقتها، أخرجت كتابي ومدرت به نحوها:

- "تفضلي كتابي.." فأجابتني الدكتورة سوسن بامتنان:
- "شكراً شكراً.. هذه أجمل هدية يمكن أن أحصل عليها".

وكالعادة، كنت أظن أن كل من أتعرف عليه سيستمر بيننا المقام لنتواصل تباعاً ولو من بعيد، لكن الشك صار يساورني؛ فكثير ممن تعرفت عليهم في مواقف عابرة عبروا فذهبوا ولم يعودوا، اختفوا في غياهب الزمن المتغير الملون.

انتهت الإجراءات وانتظرنا استلام الحقائب، فسبقتها إلى هناك. وقبل أن أمضي في طريقي، التفتُّ سائلة:

- "كيف سنتواصل دكتورة؟" فأجابتني بابتسامة غامضة:
- "دكتورتي العزيزة.. دعي الله يجمعنا..".

يا الله! عبارة سمعتها من قبل.. هي، نعم هي نفسها العبارة المقلقة. فخرجت مني كلمة سبقتني بلا تفكير:

- "لماذا؟"
- "لأننا قد نموت فنلتقي في الجنة..".

لا أدري كيف هطلت مني دمعتان ساخنتان، فسرتا جل الكلام الذي نطقت به ولم أفهمه. مؤكد أن حياتهم تختلف عن حياتنا، وكم القهر الذي يعيشونه أكبر بكثير من القهر الذي عشناه قبل التحرير، أو لعل تلك المحن جبلتهم على غير توقع.. جبلة قاسية. هل هذا يعني أننا ما زلنا نحمل في قلوبنا ليناً عاطفياً رغم المحن، وأنهم؟.. لا أدري حقيقة.

لكنها عادت وكررت:

- "دعي الله يجمعنا.."

فنعم.. سيجمعنا الله ما دام بيننا قرآن، سيجمعنا وأنا أكيدة. فرددت مثلها حينها:

- "نعم، دعي الله يجمعنا..".

ودوى صوت صفعة بشرية من بعيد، وحل الصمت.. ومضيت وأنا أردد تلك العبارة التي اختصرت كل التفاسير واكتفيت بها.

9–عتبة الحريق والرماد

تلك المواهب التي نكتشفها فينا ونعض عليها بالنواجذ..وكأنها جزءا من دمنا ولحمنا...خاصة لو كنت في الجانب الأدبي تحمل شفافية مزعجة حتى الصميم..وحساسية تربكك في واقعك القادح.

لم يكن ما يعيشه "زياد" مزاجاً عابراً، بل كان هندسة عصبية ونفسية محكومة بالإعدام بطيء؛ فالأديب الحقيقي لا يعرف المناطق الوسطى، ولا يملك ترف "العادية". عالمه إما بياض ناصع يغشي البصر، وإما سواد حالك يبتلع الروح.

في تلك الليلة، داخل غرفته التي تشبه صومعة مهجورة، كان زياد في قمة **التطرف السعيد**. أمام مصباحه الأصفر الضئيل، أكمل السطر الأخير من روايته. في تلك اللحظة، عانى من تضخم وهمي في الأنا جعله يشعر بأنه ليس بشراً من طين، بل شيء كبير ويستمر في التضخم.. يمسك بأزرار الإبداع فيحكم حلقاتها حول عنقه..

كان يضحك بنشوة صاخبة، وجسده يرتجف طرباً؛ فالكلمات لم تكن حروفاً بل دماء تسري، وظله على الجدار بدا له أفضل من ظل كل من يعرف.

هذا التطرف في الابتهاج كان درعه الواقي ضد بشاعة الواقع، فيخترع واقعا يعجبه...ينام وسط أوراقه يلتحف الكتب ويتدثر بالأقلام...

لكنه كان أيضاً فخاً ومطبا خفيا.. يعلقه في السماء، ليضمن أن يكون السقوط مرعباً.

وفجأة.. ارطتم النور بالجدار.

رن الهاتف كخنجر يشق صمت الصومعة. جاء صوت الناشر جافاً وحاسماً:

– "زياد.. المطبعة نفذت المشروع، لكن الكتاب باطل. جملة واحدة سقطت من الحقيقة، والسوق لا يقرأ الفكر اليوم.. لقد تم سحب الرواية قبل أن تُباع نسخة واحدة."

من قمة السماء، هبط زياد إلى قاع الهاوية في أقل من ثانية.

انطفأت النشوة كما ينطفئ المصباح المقطوع الكبل. هنا، لم يفقد كتابه فحسب، بل فقد هويته وسنده الوجودي. تحول عقله من وضعية "المتحكم" إلى وضعية "الضحية التائهة". نهشت رأسه أسئلة قاسية:

"لماذا كتبتُ أصلاً؟ أمن أجل تصفيق عابر أم لأجل حبر يملأ الجيوب؟ أليست الكلمات مجرد ثرثرة جوفاء في عالم أصم؟"

أصيب باكتئاب متطرف؛ شعور ثقيل بأن جسده هيكل فارغ، وأن الهواء محمل بغبار الفشل. تحولت الغرفة الضيقة إلى انعكاس لروحه المنكمشة، وبدا الشاي البارد على الطاولة دليلاً دامغاً على عبثية الوجود.

لكن الجانب الأكثر رعباً في نفسية زياد، والذي يفسر سر بقاء الأديب حياً، هو أنه **مدمنٌ على هذا الأرجوحة**. لو استقرت حياته على الهدوء أو المنطقة الوسطى لشعر بالبلادة والموت السريري. إنه يدمن الألم بقدر ما يدمن النشوة؛ فالانهيار هو الوقود الخفي للنص القادم، والجرح وحده هو ما يمنح القلم تلك الحدة القاتلة.

وسط العتمة والصمت، وفي قمة بؤسه، هدأ غبار الانهيار قليلاً.. فمد يده المرتجفة ليبحث عن ورقة جديدة، مبتسماً بمرارة، وهو يعلم جيداً أنه سيحرق نفسه مجدداً في نار الكلمات غدًا.

لكنه سيبقى نسر في الأعالي ولو كان وحده يمسك بتلك المبادئ الرفيعة..

نظر إلى السماء من نافذته الصغيرة:

-رائع أنك معنا أيها الرب العظيم...

10- أفقٌ بلا قيود

(في مواجهة فوبيا الفشل)

نص سردي في الأبعاد النفسية والتحرر من قيد الكمال

المشهد الأول: صمت الشاشة الناصعة

كان الصمت في الغرفة كتيماً، لا يقطعه سوى طنين خفيف لآلة التكييف وثقل أنفاس «سلمى».

أمامها على الطاولة، تضيء شاشة الحاسوب ببياضها الساطع. مؤشر الكتابة ينبض بإيقاع منتظم: يومض، يختفي، ثم يعود. كل ومضة منه كانت تبدو كضربة مطرقة خفيفة على أعصابها المشدودة.

التقرير النهائي للمشروع الإبداعي جاهز في عقلها، بل إن كافة أفكاره مكتوبة في قصاصات متناثرة حصرتها على مدار أسابيع طويلة. لكن يدها المعلقة فوق لوحة المفاتيح كانت ترفض النزول.

«ماذا لو لم تكن الصياغة بمستوى التوقعات؟ ماذا لو اكتشفوا في السطر الأول أن الفكرة ليست بالعمق الذي ظنوه؟»

تردد الصوت في رأسها مجدداً، ذلك الصوت الداخلي القديم الذي لا يرحم. صوت يرتدي عباءة «الحرص على الإتقان»، لكنه في الحقيقة لم يكن سوى الخوف الشديد من أن تفتح باب النقد على نفسها. بالنسبة لسلمى، كان الخيار الأسهل دائماً – والأشد إيلاماً – هو التأجيل. أن تترك العمل معلقاً في منطقة «المحاولة الممكنة»، خيرٌ لها من أن تخرجه إلى النور وتواجه احتمالية ألّا يكون كاملاً.

مسحت بكفها قطرات عرق باردة تشكلت على جبهتها، وأغلقت غطاء الحاسوب فجأة، لتستسلم الغرفة لظلام جزئي، ويسود الصمت مجدداً... صمت الهروب المؤقت.

المشهد الثاني: يدٌ على الكتف... والعودة إلى الجذور

لم تكد سلمى تُسند رأسها إلى عقب الطاولة حتى سُمعت طرَقات خفيفة متأنية على الباب، تلاها دخول «هدى» بصينية شاي دافئة.

هدى لم تكن مجرد رفيقة مساحة العمل، بل كانت تفهم هذا الصمت الذي يخيم على الغرفة جيداً؛ فقد شهدت مراراً كيف تحول سلمى طاقاتها الإبداعية إلى سجنٍ من التردد القاتل.

وضعت هدى الكوب بالقرب من يد سلمى، وجلست على طرف الكرسي المائل. وقفت نظراتها لحظة عند الحاسوب المغلق، ثم ابتسمت بهدوء وقالت بصوت دافئ:

—— «سلمى... المسودة الأولى لا تُطلب منها المثالية، بل يُطلب منها فقط أن تُولد. اتركِ للنص حق التنفس، ولنفسكِ حق الخطأ.»

رفعت سلمى رأسها، وفي عينيها حيرة متعبة وقالت:

—— «الأمر ليس مجرد نص يا هدى... إنه الشعور بأن أي ثغرة فيه هي ثغرة في شخصي أنا. كأنني أقدم نفسي للمحاكمة.»

وضعت هدى يدها على كتف سلمى بثبات وقالت:

—— «أنتِ لا تقدمين نفسكِ للمحاكمة، بل تحاكمين نفسكِ قبل أن يبدأ أحدٌ بالقراءة. الخوف الذي يحملكِ على التأجيل ليس حرصاً، بل هو جدار تضعينه بينكِ وبين العالم.»

مع كلمات هدى، انسحبت سلمى دون إرادة منها إلى الوراء... إلى سنوات المدرسة الأولى.

عادت طفلة في الثانية عشرة من عمرها، تقف في منتصف قاعة الامتحان المدرسية. كانت قد أعدت لوحة فنية شاركت بها في مسابقة على مستوى المنطقة، وجاءت النتائج متوجة إياها بالمركز الثاني.

تذكرت كيف ركضت حينها إلى المنزل تحث الخطى، تفيض بشعور الفخر، لتقدم الشهادة واللوحة لأبيها. نظر الأب إلى الشهادة ملياً، ثم وضعها جانباً بهدوء وتساءل بنبرة حازمة خالية من الاستحسان:

-«ولماذا الثاني وليس الأول؟ ما الذي ينقصكِ لتكوني الأفضل دائماً؟»

في تلك اللحظة بالذات، انغرس السهم في وجدانها:

-إن لم تكن النتيجة مكتملة بنسبة مئة بالمئة، فالجهد كله لا قيمة له. ومنذ ذلك اليوم، ارتبطت كل محاولة لديها بخوف قهري من ألا تكون «الكمال المطلق»، فصار الهروب والمماطلة وسيلتها الوحيدة لحماية ذاتها من شعور النقص.

المشهد الثالث: نقطة التحول والقرار

عادت سلمى إلى حاضرها. تنفست بعمق كأنها تزيح عن صدرها غبار تلك السنين. نظرت إلى هدى، ثم إلى شاشة الحاسوب المغلقة.

أدركت في تلك اللحظة أن الصوت الذي يهمس في رأسها بالتردد ليس صوتها هي، بل هو صدى ماضٍ لم يعد له مكان هنا.

مدت يدها بثبات، وفتحت غطاء الحاسوب مجدداً. أضاء البياض وجهها، لكن هذه المرة لم يكن المؤشر الذي ينبض يبدو كضربات مطرقة، بل كان ينبسط كشريان ينتظر الدفق.

وضعت أصابعها على اللوحة، ونظرت إلى هدى بابتسامة خفيفة وقالت:

— «سأكتبها الآن... كاملة أو ناقصة، لكنها ستُكتب.»

ومع السطر الأول الذي انسكب على الشاشة، شعرت سلمى بسلاسل الخوف تتساقط حلقة بعد حلقة؛ لم تكن قد ضمنت النجاح بعد، لكنها حققت انتصارها الأهم: لقد تحررت من قيد الكمال.

لقد صار صوت والدتها هو الأعلى في ذاكرتها عندما كانت همتها تفتر :

-الاستمرار هو النجاح...حافظي عليه..

11– منقوش في الذاكرة

ـــقصة قصيرة ـــ

1–ظلُّ الوالد الراحل

كان الظلُّ يتبعه أينما حلّ. لم يكن ظلَّه هو، بل ظلَّ والده "الشيخ عبد الجليل" الذي ظلّ عقوداً يجلجل صوته في صالونات المدينة ومنابرها، شاهراً بلاغته كالسيف، ومردداً على مسامع طفله الوحيد "عمران":

. «العلمُ يا بني لسانٌ فصيح، وخطبةٌ تسلب الألباب. من لم يملك لسانه على المنبر، فليس له في الوجود أثر.« !

مات الشيخ ورثى عمران حلمه الشغوف بالرسم والنحت، ليحمل الإرث الثقيل. أنفق زهرة شبابه يتخبط في دهاليز العلوم اللغوية المتعرجة، يطحن ذاكرته بحفظ المتون البلاغية والقصائد العصماء، حتى عين مدرساً ومحاضراً في الكلية. لكن شتان بين من ينطق بفطرته ومن يتكلف النطق!

كان عمران كلما اعتلى منصة المحاضرة، شعر بخناق يطبق على أنفاسه. تتحول القاعة في عينيه إلى ساحة إعدام، وتتحجر الكلمات على شفتيه كأنها حجارة صماء. وكان تلامذته يتهامسون في سرهم، بل ويغمز بعضهم بعضاً بسخرية مكتومة من ارتباكه وجفاف لغته المتكلفة، وكأنهم يرون جيشاً مهزوماً يرتدي درعاً لا يناسب مقاسه.

2– الفخ الكبير

في أحد أيام الربيع، استدعاه عميد الكلية إلى مكتبه الفخم. نظر إليه من فوق نظارته الذهبية وقال بنبرة لا تقبل التردد: .

«دكتور عمران.. لقد وقع الاختيار عليك لتمثيل كليتنا في المؤتمر السنوي الأكاديمي الكبير. سيلتقي كبار العلماء والأدباء من داخل البلاد وخارجها، ونريد منك كلمة رئيسية عن "سحر البيان وأثره في النفوس". اعتبرها فرصة لتسير على خطى والدك رحمه الله.«!

شعر عمران حينها أن الأرض تميد تحت قدميه. كاد أن يعتذر، لكن اسم والده الذي أُقحم في الجملة حاصر كبرياءه. عاد إلى بيته مقطوع الأنفاس، محاطاً بهول الموقف.

مرت الأيام كالسياط. حاول كتمان خوفه، وعكف على كتابة نص الخطبة، يغير عبارة، وينقح أخرى، ثم يحفظها عن ظهر قلب ليل نهار. لكنه كلما أغمض عينيه ليتخيل نفسه واقفا أمام تلك الجماهير الغفيرة، طار النص من رأسه، وتبخرت الكلمات في الفراغ!

3– ليلة الانهيار والهروب إلى الفطرة

قبل ليلة واحدة من الموعد الموعود، بلغت الأزمة ذروتها.

جلس عمران في غرفته المظلمة يراجع خطبته تحت ضوء شمعة خافق. وما إن قرأ السطر الأول حتى خانته ذاكرته تماماً، وتداخلت الألفاظ في عقله كخيوط الصوف المعقدة. مزّق الأوراق بأسى عارم، وأجهش بالبكاء. كانت فضيحته غداً مسألة وقت لا أكثر، وشعر أن أسطورة أسرته ستتهاوى على يديه.

في لحظة التخلي تلك، بينما كان يلملم بقايا الأوراق الممزقة من الأرض، أصطدمت يده بصندوق خشبي قديم قابع تحت الطاولة. فتحه بآلية وفقدان أمل، فرأى أدوات النقش والإزامل الصغيرة التي كان يمارس بها هوايته السرية في طفولته بعيداً عن أعين والده، وإلى جانبها لوحة مربعة من خشب الزيتون الأملس.

امتدت يده نحو الإزميل دون تفكير من عقله، وكأن يده هي التي تقوده لا ذهنه!

بمجرد أن لامس المعدنُ سطح الخشب، تسربت في جسده قشعريرة عجيبة. انجلت غيوم الرعب عن رأسه، وحلت مكانها سكينة لم يذقها منذ سنوات. بدأت أصابعه تتحرك بمهارة مذهلة وسرعة لا تصدق، كأن بين أصابعه وهذه القطعة خشباً سرّاً قديماً يدركانه معاً.

نسي عمران المؤتمر، ونسي خطبة البيان، ونسي الخوف والشهادات والألقاب. كان الإزميل ينساب في الخشب كما يمر النيم في الهواء؛ ينحت حافات، ويرسم ظلالاً، ويحفر زخارف هندسية دقيقة تحيط بكلمات محددة اختارها قلبه لا لسانه.

انقضت ساعات الليل الطويلة دون أن يشعر بتعب، وحين التمست تباشير الفجر زجاج نافذته، كان عمران قد وضع إزميله جانباً. نظر إلى اللوحة، فإذا هي تحفة فنية تأخذ بالألباب؛ حُفرت في منتصفها آية كريمة بخط ثلث متداخل ومتقن

بسم الله الرحمن الرحيم

ٱلرَّحۡمَٰنُ (1) عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ (2) خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ (3) عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ (4)

تحيط بها نقوش نباتية تنبض بالحياة، وتتلاعب فيها الضلال والنور بعبقرية نادرة.

تأمل عمران عمله، ودمعة دافئة تنحدر على خده، ولأول مرة أدرك يقين الحكمة: اللسان ليس طريق البيان الوحيد!

4- الوقوف المشرّف

القاعة الكبرى للمؤتمر تضج بالحضور. كبار الشخصيات والأكاديميين يملأون المقاعد الأمامية، والعدسات تلاحق المنصة.

حين نودي على اسمه:

«والآن مع كلمة الدكتور عمران عبد الجليل!»، ساد الصمت. صعد عمران إلى المسرح بخطوات رزينة. لم تكن في يده ورقة واحدة، بل كان يحمل شيئاً ملفوفاً بقماش مخملي داكن.

تطلع إليه الجميع بحيرة وتعجب. وقف خلف الميكروفون، وتأمل وجوههم لثوانٍ، ثم قال بصوت خفيض، لكنه صادق وعميق ينفذ إلى القلوب مباشرة:

. «أيها السادة.. جاء والدي رحمه الله إلى هذه الحياة وكان لسانه سيفاً فصيحاً، فكان البيان في كلامه. وظننتُ لسنوات طويلة أنني يجب أن أكون نسخة منه لأحقّق وجودي. لكنني تعلمتُ الليلة البارحة فقط.. أن الله لم يخلقنا نسخاً مكررة.« !

اندهش الحضور، وواصل عمران وهو يزيح الغطاء المخملي ليظهر لوحة خشب الزيتون المنقوشة ببراعة ساحرة تحت أضواء المسرح:

. «هذا هو بياني الذي علمني الله إياه. البيان ليس مجرد حشرجة صوت على المنبر، بل هو كل أثر صادق يخرج من صميم الروح حين تلتقي الفطرة بصاحبها. هذه لوحتي.. وهذه خطبتي لكم اليوم، فكلُّ مخلوقٍ ميسّرٌ لما خُلق له.«!

ساد القاعة صمتٌ مطبق لعدة ثوانٍ.. صمت مذهول بالجمال والصدق.

وفجأة، وقف عميد الكلية في المقدمة وبدأ بالتصفيق، ثم تبعته القاعة بأكملها، في موجة مدوية من التصفيق الحار والتقدير الخالص الذي لم تحظَ به أي كلمة خطابية في ذلك اليوم!

في تلك اللحظة، شعر عمران أن قيداً فولاذياً قد انفكّ عن روحه للأبد، وأن والده في علياء السماء يبتسم له الآن.. فقد عرف الابن أخيراً سرّ وجوده.

2- خواطر قصصية

1–صانع الوعود وبريق الرمال

كان "سعيد" يُتقن صناعة الأحلام أفضل من أي شخص آخر .إذا تحدث عن مشروع، ظنّ السامع أنه سيغير وجه التاريخ غداً صباحاً؛ وإذا خطط لرحلة، رسم تفاصيلها بدقة منقطعة النظير حتى لَيُخيل إليك أنك تشم رائحة المكان قبل أن تتحرك خطوة واحدة.

لكن سرّ هذه الشخصية لم يكن في الإنجاز، بل في ذلك **الحماس الجارف** الذي يشتعل في عينيه .كان صوته يرتجف حماسة، ونبرته توحي بيقين مطلق، وهو ما جعل كل من حوله يقعون في فخ التصديق مراراً وتكراراً .يمنحون الثقة بسذاجة، ليصطدموا لاحقاً بالحقيقة المرة :

وعودٌ تتبخر كأن لم تكن، ومشاريع تُجهض في مهبطها الأول، ومماطلة لا تنتهي .يغير سعيد رأيه واتجاهه، بل وخططه ومبرراته، بالسهولة ذاتها التي يغير بها هندامَه، غير آبه بالوقت الذي أُهدر، ولا بالآمال التي بُنيت على رمال متحركة.خاصة لأقرب الناس إليه....

نظرت إليه "فاطمة" طويلاً وهو يشرح بحماسته المعتادة مشروعاً جديداً كلياً، ناسياً أو متناسياً عشرات الوعود القديمة التي خلّفها وراءه رماداً كأردأ مايكون، تذكرت كم كانت تنفعل في الماضي؛ كم جادلت وبكت، وأحرقت أعصابها في عتابٍ لا يُجدي، منتظرةً إيفاءً لا يأتي أبداً .كانت تشعر دائماً بأنها الضحية العالقة في مدارات حماسته المزيفة.

لكن شيئاً ما انكسر داخلها بهدوء، وتحول إلى نضج فجائي .أدركت أن الصراخ والعتاب لا يغرسان شجرة في أرض قاحلة، وأن الانفعال يستهلك طاقتها وحدها بينما يظل سعيد هادئاً في عالمه الهلامي.

في تلك اللحظة، عزمت على تغيير الطريقة تماماً ..

قررت أن تكيل الصاع صاعين، لا بالصراخ ولا بالانتقام الصاخب، بل **بالصمت والهدوء اللذين يقطعان دابر الوهم**.

عندما بسط وعوده الجديدة بحماس منقطع النظير..

أومأت له برأسها وابتسمت ابتسامة هادئة، هادئة إلى حدّ أخافه قليلاً .وافقته على كل ما يقوله بعبارات مقتضبة، وسايرت خطته الحماسية الأخيرة كأنها تؤمن بها تماماً، بينما كانت في صميم قلبها تبني جداراً منيعاً من اللامبالاة. من مواساة النفس والطبطبة عليها، قررت أن تتجاهل وعوده الجديدة قبل حتى أن تبدأ، وأن تتعامل مع كلامه كنسيم صيف مرّ بلا أثر.

وبينما كانت تفعل ذلك، لم تكن تبحث عن انتصار شخصي فارغ، بل نوت في سرها أن تتجاهل وتتجاوز، مبتغية بذلك رضا الله عز وجل، ومحررةً نفسها من أثقال التعلق بالبشر،ناسجة عالمها الجديد الخاص والجميل المنتج، و الذي صنعته بنفسها بصدق الوعود..و لتدرك أخيرًا أن السلام النفسي يبدأ حين نكف عن انتظار الثمار من أشجار بلا جذور.

2– العَلَق الأسود.. وحدود النور**

في ركن هادئ من العالم الافتراضي، كانت صفحتها أشبه بحديقة غناء؛ تسقيها بكلمات طيبة، وحكم مستوحاة من عمق السيرة النبوية، وخواطر تعكس قلباً صافياً يحب الخير للجميع. كانت تؤمن أن الكلمة الطيبة صدقة، وإن المساحات الرقمية يمكن أن تكون متنفساً نقياً للأرواح المتعبة.لكن، لكل حديقة جميلة طفيلياتها.

كان هناك من يتردد على صفحتها، تغلغلت روحه بالثقل والتطفل؛ يشبه تماماً نبات "العَلَق الأسود" الذي لا ينمو إلا على دماء الآخرين وجهدهم. كان يملك مفردات منمقة، ويتظاهر بأنه حارس الفضيلة والعلم، بل ويحاول استعراض معرفته الدينية والثقافية بأسلوب متكلف، بينما باطنه يضمر تنافساً مرضياً ورغبة خفية في "كسر الروح."هذا ما عاينته فيما بعد..من وراء النقد ونقد النقد المتدرج للأعلى..

كلما كتبت حكمة، أو عبرت عن موقف، جاء ليفتش في التفاصيل، باحثاً عن ثغرة أو سقطة واهية ليهبط بها من العزيمة إلى الخيبة، من الثقة إلى الشك. والأكثر إيلاماً أنه فعل ذلك رغم كل الخدمات الكثيرة التي قدمتها له يوماً حين كان محتاجاً ليد العون؛ فبدلاً من أن يرد الجميل بالعرفان، اختار أن يردّه بالجحود، متخذاً من علمها وطيبتها وربما بعض سذاجتها، جسراً لتعويض نقصه الداخلي.متدثرا بدماثة مفضوحة.هي تبحث عن أصحاب العقول، وهو يبحث عن جمهور فشتان..

–الشهرة ياسيدي ليست ببريق إعلامي، بل هي قيمة تضيفها إلى عالم الأنا..

ذات يوم، كتبت خاطرة مستوحاة من عظمة اليقين بالله، مذكّرةً بموقف النبي صلى الله عليه وسلم حين عرضوا عليه الدنيا بما فيها ليترك دعوته فرفضها، واختار العطاء المرتبط بالله وحده لا بالبشر. كتبت بوضوح وقوة:

*"يلي بدو يعملك مكب نفاياته بلاه.. "

أعطى رسولنا العظيم كل شيء بس لم يأخذ منهم.. أخذها من الله"*.

وأتبعتها بقاعدة تربوية خالصة:

"حطيت حكمة على صفحتي عجبك عجبك ماعجبك انقد برفق وروح."

وكالعادة، لم يستطع هذا العلق إلا أن يترك حروفه. دخل بتعليقه السمِج، يفرغ شحناته السلبية وثقله، محاولاً فرض وصايته وتقليل شأن ما تكتبه، وكأن صفحته ملكية عامة لتفريغ عقده النفسية.

في تلك اللحظة، شعرت بغصة ثقيلة على القلب والروح؛ كيف لمثل هذه النوعية أن تتجرأ على استنزاف الطاقة؟ وكيف لبعضهم أن يجيدوا فن "النكد" وتكسير المجاديف بكل هذا البرود؟

لكن سرعان ما استدعت وعيها الكامل، واستقرت تلك الحقيقة الناصعة في قلبها:

"الناس تتصرف حسب طبعها مو حسب ماذا يستحق الآخرين..."

أدركت تماماً أن قبحه وثقله لا علاقة لهما بها، بل هما مرآة خالصة لداخله المفلس بطريقة ما. وقررت ألا تكون مكباً لنفايات أفكاره بعد اليوم. وبكل هدوء وثقة، قامت بحذف تعليقه، وحظرت وصوله إلى عالمها نهائياً، وأغلقت الباب في وجه كل طاقة مستنزفة.

في تلك اللحظة بالذات، عادت الروح تتنفس بحرية، وأشرق السلام الداخلي من جديد، متأكدةً أن التخلص من الأثقال هو أول خطوة نحو التحليق،بعيدا جدا كنسر علا وأزاح الغراب الذي كان يشاركه استنشاق الأوكسجين.

3–صوتُ حَبِيب

طالَ الصَّمْتُ حَتَّى كَادَ يَغْدُو جِدَاراً سَمِيكاً يَفْصِلُ بَيْنَ قَلْبَيْنِ، فَقَدْ كَانَتِ السَّاعَةُ الرَّابِعَةُ مِحْوَرَ تِلْكَ اللَّحْظَةِ الَّتِي رَسَمَتْ خَطّاً فَاصِلاً فِي عِلاقَتِهِمَا؛ كَلِمَاتُهُ لَمْ تَأْتِ إِلا مَرَّةً وَاحِدَةً بِنَاءً عَلَى طَلَبِهَا، وَلَمْ يُكَرِّرْهَا. كَانَ الكَلامُ يَتَبَخَّرُ فِي الهَوَاءِ، مَغْسُولاً بِتَصْفِيَةٍ خَائِفَةٍ اِتِّقَاءَ مَا لا يُحْمَدُ عُقْبَاهُ. لَقَدْ أَلْقَى جُلَّ مَطَالِبِهَا لِلرِّيحِ، فَسَاءَلَتْ نَفْسَهَا فِي حَيْرَةٍ: أَهِيَ فَوْضَى حَيَاتِهِ التي تَسْرِقُهُ، أَمِ انْشِغَالٌ يُعْمِي العَيْنَيْنِ؟ لَكِنَّ نِدَاءَ الأَلَمِ الصَّادِحَ فِي دَاخِلِهَا كَانَ يَهْتِفُ بِصَوْتٍ وَاثِقٍ:

«سَأَبْقَى أَهَمَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ».

لَمْ تَعُدْ كَرَامَتُهَا تَتَحَمَّلُ عَنَاءَ التَّكْرَارِ، وَلا الرَّكْضَ وَرَاءَ أَمَلٍ يَجِئُ وَلا يَجِيءُ. سَلَّمَتْ أَمْرَهَا لِرَبِّ الوُجُودِ؛ فَهُوَ الأَقْدَرُ عَلَى تَلْبِيَةِ الرَّغَبَاتِ، وَهُوَ الَّذِي يَخْتَارُ المُنَاسِبَ فِي الوَقْتِ المُنَاسِبِ. كَانَتْ تَعْلَمُ فِي عُمْقِهَا أَنَّ مَطَالِبَهَا كَانَتْ غَنِيمَةً فِي يَدَيْهِ لَمْ يُدْرِكْ قِيمَتَهَا بَعْدُ. اِبْتَلَعَتْ غُصَّةَ الكَلامِ، وَلأَنَّ لَهَبَ الغُرْبَةِ يُجَفِّفُ الشَّرَايِينَ وَيَجْعَلُ القُلُوبَ أَهَشَّ مِمَّا يَنْبَغِي، عَذِرَتْ صَمْتَهُ وَصَمَتَتْ هِيَ الأُخْرَى.

لَكِنَّ الشَّوْقَ يَظَلُّ جَمْرَةً تَحْتَ الرَّمَادِ؛ فَلَيْسَ مِنَ الطَّبِيعِيِّ أَنْ يَنْتَظِرَ المَرْءُ عَاماً كَامِلاً لِيَلْتَقِيَ بِمَنْ يُحِبُّ. الأَشْوَاقُ قَدْ تَنَامُ لَكِنَّهَا لا تَمُوتُ، وَالكَلِمَاتُ تَهْرُبُ وتَضِيعُ إِنْ لَمْ تَرْسُ عَلَى الشَّاطِئِ المُنَاسِبِ. وَالعُمْرُ يَمْضِي سَرِيعاً بِلا انْتِظَارٍ... فَإِلَى مَتَى يَبْقَى كُلٌّ مِنْهُمَا مُغْتَرِباً عَلَى طَرِيقَتِهِ الخَاصَّةِ؟

وَفِي لَحْظَةٍ غَارِقَةٍ فِي هَذَا التَّأَمُّلِ الشَّجِيِّ، رَنَّ الهَاتِفُ.

لَمْ يَكُنْ رَنِيناً عَابِراً، بَلْ صَوْتاً مُلِحّاً يَهْتَزُّ بِإِصْرَارٍ غَرِيبٍ. نَظَرَتْ إِلَى الشَّاشَةِ وتَرَدَّدَتْ؛ فَقَدْ كَانَ الصَّمْتُ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ أَكْثَرَ رَاحَةً وَسَكِينَةً مِنَ الكَلامِ. لَكِنَّ الرَّنِينَ ظَلَّ يَتَصَاعَدُ يَسْتَجْدِي الإِجَابَةَ.

مَدَّتْ يَدَهَا وَرَفَعَتِ السَّمَّاعَةَ بِهُدُوءٍ حَذِرٍ.

— «ماما أنتِ هنا؟»

ردّتْ وهيَ تغَصُّ في دموعِها، وجاءَ صوتُهُ عبرَ الأَثِيرِ:

— «أُحِبُّكِ»

فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ بِالذَّاتِ، انْهَارَتْ كُلُّ سُدُودِ الكِبْرِيَاءِ، وَتَبَخَّرَتْ كُلُّ التَّبْرِيرَاتِ. تَهَاوَتْ قَسْوَةُ العِتَابِ، وَسَقَطَتِ الدُّمُوعُ غَزِيرَةً لِتَغْسِلَ كُلَّ جَفَافٍ خَلَّفَتْهُ الأَيَّامُ وَالغُرْبَةُ.

فَمَهْمَا تَثَاقَلَتِ الأَيَّامُ عَلَى عَاتِقِ الإِنْسَانِ، وَتَشَعَّبَتْ دُرُوبُ الحَيَاةِ بِثِقَلِ أَعْبَائِهَا، وَتَرَاكَمَتِ المَسْؤُولِيَّاتُ حَتَّى كَادَتْ تَطْمِسُ مَلامِحَ البَوْحِ، تَظَلُّ مَحَبَّةُ الأَبْنَاءِ هِيَ البَوْصَلَةَ الثَّابِتَةَ الَّتِي لا تَضِلُّ طَرِيقَهَا.

قَدْ يَتَوَارَى البَوْحُ خَلْفَ جُدْرَانِ الانْشِغَالِ، وَقَدْ تَفْرِضُ ضُغُوطُ الوَاقِعِ صَمْتاً يَظُنُّهُ المَرْءُ جَفَاءً، لَكِنَّهُ صَمْتٌ مَخْبُوءٌ تَحْتَ رِدَاءِ الإِرْهَاقِ، وَمَحْفُوفٌ بِدِفْءٍ خَفِيٍّ لا يَمُوتُ.

فَالقَلْبُ الَّذِي أَضْنَاهُ بُعْدُ المَسَافَاتِ لا يُفَرِّطُ أَبَداً فِي جُذُورِهِ؛ فَالأَبْنَاءُ لَيْسُوا عَابِرِي سَبِيلٍ فِي حَيَاةِ الآبَاءِ، بَلْ هُمُ الوَتَدُ الَّذِي تَرْتَكِزُ إِلَيْهِ الرُّوحُ. وحِينَ تَخْتَصِرُ الحَيَاةُ رَسَائِلَهَا، وَيَأْتِي نِدَاءٌ مباغتٌ كَهَذَا عَبْرَ الأَثِيرِ، يُدْرِكُ المَرْءُ أَنَّ حُبَّ الأَبْنَاءِ مَهْمَا ثَقُلَتِ الأَعْمَالُ لا يَغِيبُ، بَلْ يَبْقَى الجَمْرَ المُنِيرَ الَّذِي يَبْلُّ جَفَافَ العُمْرِ وَيَهْدِي الِاسْتِقْرَارَ إِلَى الرُّوحِ.

د. ريمه عبد الإله الخاني

4- صدى الحروف.. ومرارة القرار

1. سماء معلّقة بالأحلام

كانت "سعاد" منذ أشرق صباها تدرك أن الحياة أوسع بكثير من جدران المطبخ، وأعمق من رتابة الأيام المتسارعة. كانت تحمل في صدرها صندوقاً مرصعاً بالأحلام؛ أحلام تشبه الغيوم المثقلة بالمطر، تأبى إلا أن تسقي الأرض اليابسة حولها. لم تكن تكتفي بالقراءة، بل كانت تتنفس الكلمات. في رأسها، كانت تعقد ندوات أدبية فكرية، وفي قلبها كانت ترسم خرائط لمستقبل مشرق يجمع بين دفء الأمومة وشموخ الفكر.

جاء الأطفال.. واحدًا تلو الآخر، فزينوا بيتها بصخبهم البريء وعطر طفولتهم. اعتقد القريبون منها أن عجلة الأيام ستدور لتطحن تلك الأحلام الطموحة بين الحفاضات ووجبات الطعام، لكن سعاد كانت من طينة أخرى. لم تتوقف عن الحلم قط؛ بل جعلت من أطفالها رفقاء دروبها المعرفية. كانت تقرأ عليهم القصص بصوت مسرحي مشوق، وتزرع في عقولهم الصغيرة شغف الأسئلة الكبرى.

2. اتساع الأفق

وحين لم تكفِها جدران البيت الضيقة، فتحت أبوابه لقلوب أخرى. جمعت أولاد الجيران في صالونها المتواضع، وجعلت منهم تلاميذ في مدرسة حب المعرفة؛ تقرأ لهم، تعلمهم قواعد اللغة، وتغرس فيهم ثقة

الأيام. ولم تكتفِ بذلك المحيط الصغير، بل أطلّت على العالم حين دخلت عالم الإنترنت في بواكيره؛ أخذت تنشر حكمها، وتأملاتها الفلسفية البسيطة والعميقة في آنٍ واحد، فتتجمع حولها أسماء وعقول من شتى الأصقاع، يصفقون لحرفها الصادق.

ومع انقضاء السنين واشتداد عود أبنائها، تخطت سعاد عتبات العالم الافتراضي إلى الواقع الخشن؛ طبعت كتابها الأدبي الأول، فوقعته بيدها المرتجفة من فرط الفرح، ودخلت معمعة المؤتمرات الثقافية، تقف على المنابر بثبات، تناقش وتحاضر وتثبت حضورًا لافتًا ومهمًا، وكأنها تقول للعالم:

"ها أنا ذا، لم تسرقني زحمة الحياة، بل زدتها بهاءً" .

3. غصة الحنظل

لكن الحياة، في منعطفاتها الخفية، تخبئ اختبارات لا تُقاس بقوة الحجة ولا بفصاحة اللسان.

في يوم أزف فيه القدر، وألقت الظروف بثقلها على طاولة الأسرة، وجدَت سعاد نفسها أمام مفترق طرق مصيري؛ قرار يحدد ملامح مصير العائلة بأسرها، قرار يتطلب تضحية كبرى أو التزاماً بقواعد قاسية لم تكن تحسب لها حساباً. كانت تدرك تماماً أن الكلمة التي ستنطق بها ستغير وجه الأيام للأبد.

حاولت أن تتكلم.. أن تجمع أطراف بلاغتها المعتادة لتدافع عن اختيارها، لكن الحروف تجمدت في لسانها. غصت بريقها، وشعرت بغصة في حلقها كأنها تبتلع حنظلاً مُرّاً. أدركت حينها أن صخب المؤتمرات وبريق الكتب لا يمنحان للمرء حصانة ضد قسوة الواقع. خذلتها الكلمات حين كانت في أمس الحاجة إليها، وتيقنت أن هناك معارك تخسرها الروح بصمت مطبق، وأن بعض القرارات أكبر من أن

تحتملها لغة الحبر والورق.

4. المرفأ الأخير

استدارت سعاد ببطء.. لم يكن استدارتها ضعفاً، بل كان استسلاماً نبيلاً وواضحاً بعد مضي مشوار العمر طويلاً، وبعد أن سبرت أغوار العطاء حتى أثملتها التجربة. أدركت أن رياح الأقدار أقوى من أشرعة الأمنيات.

بهدوء، دخلت غرفتها الأدبية الخاصة؛ الغرفة التي شهدت ولادة أفكارها وسهر لياليها الطويلة. فرشتها بكل ما تحب وتهوى؛ رتبت كتبها العزيزة بعناية، وضعت رائحة البخور المفضلة لديها، وعلقت لوحاتها القديمة.

تمددت على فراشها هناك، بين خبايا ذاكرتها ودفء ما تبقى من حكاياتها، وأغمضت عينيها بسلام، متروكةً للعمر أن يطوي صفحته الأخيرة على إيقاع طمأنينة خرساء، تشبه سكينة الموانئ بعد العاصفة.

5–أين أنتِ؟

لم تعد في الوقت متسعا لتلك الحكايات الغريبة التي تُعنى بها الأجيال الصاعدة، ولاهي قادرةً على مجاراة إيقاع عالم يركض ولا يلتفت. طويلاً، كانت تحاول أن تقف في منتصف الطريق بين عوالمهم وعالمها؛ تبتسم لما لا تعهده، وتصغي إلى تفاصيل لا تشبه روحها، فقط لكي تبقى الدائرة مغلقة عليهم معاً. بل لتبقى معهم، كانت تؤمن أن الحب الحقيقي هو أن تخلع رداء العزلة وترتدي أردية شتى لعلّها ترضي قلوبهم وتُبقيهم قربها.

لكن الحياة، في الطرف الآخر، كانت تمضي على وتيرة أخرى. سبروا أغوار آفاق بعيدة، وطاروا في سماء أوسع، وساروا بخطىً حثيثة تتسابق مع الريح. أما هي، فقد كانت خطواتها بطيئة، ووئيدة، تشبه إيقاع الأرض الثابتة.

في البداية، حاولت أن تركض... أن تقبض على الذيل الهارب للأيام. بذلت من روحها وقلبها ما يكفي لتظل في الركب. بل في ركبهم ترعى جديدهم وتحاول أن تفهم كل جديد.. ولكن، كم يملك الإنسان من طاقة للركض الخارجي؟، كيف يسعفه عمرٌ يمضي هاربا ؟.

جلسَتْ فجأة.. أو بالأحرى، ألقت بها طاقة التعب على مقعدها المفضل..

تمتعت، للوهلة الأولى، ببهجة السكون. هدأ ذلك اللهاث المستمر الذي كان يعتصم بصدرها. نظرت حولها فوجدت نفسها في مكانها الذي لا تبارحه، بينما هم مضوا في طريقهم.

ثم.. التفتت إلى الطاولة الخشبية العتيقة، فوجدت العلبة الصغيرة المغلّفة بشريط أنيق. فتحتها ببطء لتخرج منها "ساعة ذكية" متطورة، ومعها بطاقة قصيرة بخط ابنها:

"-أمنا الحبيبة، لاحظنا أنكِ تتعبين في ملاحقة أخبارنا وخطواتنا.. هذه الساعة ستساعدكِ على حساب خطواتكِ وتنبيهكِ حين تتخلفين عن الركب، لعلّكِ تقتربين من عالمنا أكثر"!

سقطت الكلمات من يدها كحجارٍ ثقيلة. لقد أمضت وقتا طويلاً وهي تحاول؛ تبتلع تفاصيل لا تشبهها، وتقرأ كتباً لا تعنيها، وتشاهد تلك الأفلام الكرتونية الخرافية لتجد مدخلاً إلى عقولهم. فترافقهم بطريقة ما، كانت تؤمن أن الحب هو أن تخلع جلدها وتلبس جلودهم، وأن تركض في مسارح لم تتدرب على الركض فيها يوماً.

لكن الساعة الذكية تلك كانت الصدمة؛ مرآة باردة تقول لها بصمت:

– أنتِ لستِ معنا، أنتِ فقط.. تحاولين اللحاق بنا.

رفعت عينيها نحو النافذة؛ حيث الغرفة التي كانت تضج بحكاياتهم أصبحت خاوية على عروشها منذ أن سافروا. ركضت طويلاً في بستان أيامهم، حتى إذا التفتت لتبحث عن نفسها، وجدت أن اللهاث أكل عافيتها، وأن الهوة قد تمددت كثيراً حتى صار الصمت سيد المكان، من الطبيعي أن تصل لطريق مسدود وتلهث وهي تلهث وراءهم لكنها لم تندم..فقالت خيرا

-هذا مايجب أن يكون..

غير أن السكون حين يأتي متأخراً، يحمل معه ثمناً باهظاً؛ فقد خلف هذا التوقف ألماً طويلاً، غائراً كجرح قديم لا يُرى. ومع كل يوم كان يمضي، كانت الهوة تتسع بين ضفة صمتها وضفة صخبهم، حتى فرغت الجعبة تماماً. نفد الكلام.. ضاعت تلك الأحاديث، وتلاشت القدرة على العتاب أو الشرح.حاولت أن تنادي، أن تشرح، أن تعاتب.. لكن الحنجرة خذلتها. نفد الكلام تماماً.فعلا..

لم يعد هناك ما يُقال سوى ما تفرضه أصول المسافات والوداع الافتراضي....

سلام عابر، وبعضُ قُبلٍ باردة على شاشات الهواتف، وأم تتمتع للمرة الأولى بسكونٍ مرّ.. بعد أن قطعت حبل الركض الأبدي، وتساءلت بصوت خافت يعتصره الحنين:

"-أمي.. أين أنتِ؟.."

لتدرك حينها أن أشد أنواع الفقد، ليس فقدان الآخرين، بل فقدان الإنسان لنفسه وسط زحمة محاولته لقاء من يحب.

د.ريمه عبد الإله الخاني

3- روايات قصيرة

1- أشجار السدر لا تبكي

— رواية قصيرة —

كان يعلم منذ اليوم الأول الذي جمعنا فيه سقف واحد أنني امرأة لا تطرق أبواب العجز، وأن لديّ شغفاً وعقلاً يستطيعان تحويل التراب إلى ذهب وتحقيق أرباح جمة.

حين وطئت أقدامنا أرض الغربة، كانت الجدران الغريبة تزيد من برودة الأيام. أذكر كيف كانت وحشة المكان تلتهم الساعات؛ لا وجه أنيس ولا صوت قريب، وسقف غريب يضللنا بصمت ثقيل. لم أقعد منتظرة أن تهب علينا رياح الفرج من الفراغ، بل حولتُ زاويتي الصغيرة في ذلك المنزل المغترب إلى خلية عمل تنبض بالحياة، أعيد منها نسج ذاتي وطاقاتي. وبدأت الأرقام تتكلم، والنجاح يطرق بابنا من بين جدران الغربة الصامتة.

لكنه، بدل أن يرى في جهدي وطاقتي طوق نجاة في بلدٍ غريب، رأى فيه تهديداً صامتاً لعرشه الموهوم. كان رزقه عسراً، قليلاً، وشديد الصعوبة، وبدلاً من أن يعترف بأنني أسنده وأرفع عنه ثقل الأيام والمصاريف المتراكمة في أرض لا ترحم، أبت ذكوريته إلا أن تثور. كان يرى في نجاحي عرياً لعجزه، وفي استقلالي كسرًا لهيبته المتخيلة. عارض بكل قسوة، وزمجر بصوت يملؤه التوتر والغضب:

»اتركي عملكِ فوراً! لا أريد هذا المال«!

كانت ذكوريته تلح عليه كمرض قديم؛ يريد امرأة تابعة تعيش تحت ظله حتى لو كان الظل حارقاً ومعدماً، وتقتسم معه الفقر والحاجة شريطة أن تظل تحت جناحه، لا أن تمد جناحيها لترتفع بالبيت معه.

مشت الأيام على جمر الخلافات والوحدة النفسية داخل الغربة، حتى جاء وقت الولادة. كنا قد أطفأنا لهيب المشاحنات قليلاً، هدنة هشّة فرضها تعب الحمل وشوق ينتظر مولوداً جديداً. قررتُ العودة إلى بلدي لألد هناك وسط الأهل، ظناً مني أنني سألوذ من جفاء الغربة بدفء الوطن وعطف القربى.

لكن صدمتي هناك كانت أكبر وأشد إيلاماً؛ فقد كان ينتمي إلى السلالة ذاتها، قريباً من الرحم والعصبة. وحين تجرأتُ وعارضتُ رأيه ووقفتُ في وجه غروره الباطل، وقف الأهل جميعاً في صفّه. اعتبروا استقلالي تمادياً، ورأوا في دفاعي عن كرامتي وعملي خروجاً عن أعراف العشيرة. غلّبوا قرابته على وجعي، وحكموا عليّ بالخذلان ليتركواني أعاني تبعات مقاطعتهم الجائرة.

دخلتُ المستشفى في ساعة المخاض الشديدة، ورائحة المعقمات تملأ المكان ببرود يماثل برود قلوبهم. أذكر تلك الأسياب الطويلة الباردة، وأصوات الأقدام المارة دون أن تعنيني؛ لم تكن هناك يد حنونة تمسك بيدي، ولا دعوة دافئة تهمس في أذني، ولا وجه قريب ينتظر خلف الباب ليزفّ نبأ المولود.

ولدتُ وحدي... وحدي تماماً كقطة يتيمة في الطرقات، لا أهل يربتون على كتفي، ولا زوج يشدّ أزري ليمحو عني ألم الروح والجسد. كانت صرخة طفلي الأولى في ذلك المشفى البارد هي الصوت الوحيد الذي أعاد إليّ الحياة، وشعرتُ حينها أن الحبل السرّي الذي قُطع بيني وبين طفلي، قد قُطع في اللحظة ذاتها بيني وبين كل من خذلني.

خرجتُ أحمل طفلي بين ذراعيّ وثقل العزلة في صدري، وعدتُ إلى بيتي البعيد لأفتقده من جديد؛ فقد كانت سفرياته تتضاعف، وغيابه يتسع، وكأنه يهرب من مسؤوليته ليتركني غارقة في صمت البيت وتعب الأمومة الجديدة.

ولأن العمل كان ملجأي الوحيد للنجاة، غرقتُ فيه أكثر. وحين أدرك أنني لستُ امرأة تنكسر بسهولة، وأن نجاحي الذي حاول دفنه بات هو الملاذ الآمن الوحيد الذي يظلل حياتي وحياة طفلي، بدأ يظهر في الأفق من جديد.

كان يطل برأسه بين الحين والآخر محاولاً جسّ نبض العودة، لكنها كانت محاولات فارغة، بلا خطط مستقبلية، وبلا نية حقيقية لإصلاح ما انكسر أو تقديم أدنى درجات الرعاية والعناية. كانت اتصالاته عابرة ورسائله مقتضبة، يرميها ببرود وكأنه يقدم لي مكافأة بوجوده، منتظراً مني أن أفتح له الأبواب دون أن يكلف نفسه عناء الاعتذار أو التغيير.

كنت أتأمل هاتفي وهو يرمي رسائله الباهتة، فأحدث نفسي بسخرية لا تخلو من مرارة:

«أيّ رجل هذا الذي يظن أن حضوراً عابراً كظلّ شاحب يكفي لترميم ما هدمته يداه؟ يظن أنني سأمد يدي لألتقط فتات اهتمامه، ناسيًا أنني بنيتُ مملكتي من ركام وحدتي. هل يعتقد حقاً أنني تلك الفتاة الساذجة التي تصدق الوعود الهوائية؟«

لم تكن تلك الاتصالات سوى محاولات بائسة للهروب من عجزه المتراكم، كان يريد استقراري ليرمم به صداه، دون أن يدفع مقابل ذلك شيئاً من أنانيته، دون أن يملك شجاعة البناء أو رعاية ما تبقى.

اشتعلت الخلافات مجدداً، وعادت إلى مربعها الأول. تركني ومضى، ترك خلفه ركاماً من الوعود الهشة، ومضيتُ أنا في طريقي بلا التفات.

مشت السنوات، وفي أحد الأيام، جاءني خبرٌ عابر من بعيد: لقد تزوج بغيري.

تلقيتُ الخبر ولم أكترث، بل لم تتحرك في صدري قطرة حزن واحدة؛ فقد كان غائباً أصلاً عن حياتي منذ زمن طويل، وما كان زواجه إلا حبراً على ورق في كتابٍ أغلقتُه بيدي منذ أعوام.

علمنا بنبأ زواجه كما يُعلم بخبر طارئ في نشرة أخبار متأخرة لا تخصنا؛ بلا شغف وبلا مبالاة. أمعنتُ النظر في طفلي الذي كبر أمام عيني كشجرة شاهقة غرستُها بماء الصبر والتعب، ونظرتُ إلى مشروعي الذي بات يثمر أماناً واستقراراً ورغداً. تبسمتُ في سرّي وسألتُ نفسي:

»هل يبحث عن امرأة أخرى لتتحمل عنه عسر العيش وتدفئ له برودة، أم أنه يمارس هوايته القديمة في توزيع خسائره على نساء العالم؟«

تركته يركض خلف أوهامه وذكوريته المأزومة، ومضيتُ أرتّب خطوات غدي بخطى ثابتة ورأس مرفوع... كأن شيئاً لم يكن.

غير أن سؤالاً كان يخبو ويطفو أحياناً على حافة التداعي:

– ماذا لو جرب يوماً أن يجتهد حقاً؟ ماذا لو سعى ليرفع مستوى معيشته ويأخذ بيدي ليريحني من عناء العمل ومكابدة الأيام؟ ألم يكن ذلك حلاً مثالياً يختصر كل هذا الخراب، ويرمم ما هدمته الأنانية؟..

لكنها الأسئلة المتأخرة... التي تُطرح على أطياف رجالٍ لم يعرفوا معنى النضال إلا في الهروب.

2-عمى الروح

رواية قصيرة

الفصل الأول: رماد الحقيقة

ساد الصمت في الغرفة إلا من صوت أنفاس مروان المتسارعة، كان يجلس في مواجهة سارة، وعيناه تدوران في زوايا المكان كأنه يخشى أن تنطق الجدران بما يكتمه. التفتت سارة إليه، كانت ملامحها هادئة هدوءاً يسبق العاصفة، لكن يدها المرتجفة وهي تمسك بكوب الشاي كانت تفضح الزلزال الداخلي الذي يعصف بوجدانها.

كسر مروان الصمت بصوت مخنوق، غائر في الندم:

– "ما زلت لا أدري كيف حصل كل هذا... كيف تركنا الأمور تصل إلى هذه النقطة المظلمة."

نظرت إليه سارة ببرود مصطنع، وحاولت السيطرة على نبرتها:

– "المشكلة الأكبر يا مروان، ليست في وقوع الكارثة، بل في أنك كنت شاهداً على كل ما جرى، ومع ذلك لزمت الصمت. لم تتجرأ على البوح بالحقيقة طوال سنة كاملة، ولم تتكلم إلا الآن... بعد أن أحسست أن البلل قد أصاب ثيابك، وأن الحريق أوشك أن يصل إلى بيتك."

أحنى مروان رأسه، عاجزاً عن النظر في عينيها مباشرة:

– "نحن البشر دوماً نقيس الأمور بمقياس المنفعة والمصلحة الشخصية يا سارة. الخوف يعمي الأبصار. ومن كان فينا فدائياً يحاول قول الحق، ينتهي به المطاف ليدفع وحده الثمن غالياً في النهاية."

تنهدت سارة بعمق، وارتسمت على شفتيها ابتسامة مريرة:

– "هل هذا يعني أن نغلق باب الخير تماماً؟ هل نعيش في عالم يخشى فيه الإنسان أن يمد يده لأخيه؟"

رد مروان بسرعة كأنه يبرر خطيئته:

– "بل نتأكد أولاً أين سيسير هذا الخير، ونتحرى بقدر الإمكان عن النوايا. العاطفة العمياء تقود إلى الهلاك."

صمتت سارة للحظات، وعادت بذاكرتها إلى الوراء، إلى الأيام السعيدة المزيفة التي عاشتها. نظرت إلى مروان وقالت بنبرة دافئة ممتزجة بالأسى:

– "طوال تلك الفترة، كنت أشعر وكأنك أمي في حرصك وخوفك علي..."

قاطعها مروان بصوت حاد ومفاجئ، كأنه يمزق قناعاً يرتديه:

– "لكنني لست كذلك يا سارة! لستُ أمكِ، ولا يمكنني أن أكون."

لم تتأثر سارة بحدته، بل تابعت قائلة:

– "لقد قدمتَ لوالدتي الضريرة ما لم يقدمه لها رحمها الذي أنجبها... رعيتها، وحميتها، ولكن..."

– "لا تكملي!" قال مروان مقاطعاً وعيناه تلمعان ببريق غريب، "كلٌّ يعمل بأصله في هذه الحياة. لكن الأصل أحياناً يكون مغموساً بالخديعة."

سألت سارة، والشك يبدأ بقرع طبول الخوف في صدرها:

– "هل صدقتِ حقاً أنها..."

– "لا، حتى الآن لم أتخيل ولم أصدق." قال مروان وهو يقف ويمشي بخطوات مضطربة في أنحاء الغرفة. "كيف مضى على ذلك الأمر سنة كاملة دون أن ينكشف؟ سنة كاملة والجميع يعيش في الوهم. تلك المسكينة أنجبت طفلة ضريرة مثلها، وأنتِ... أنتِ أنجبتِ لزوجكِ طارق توأم الذكور الذي كان يحلم بهما ويفاخر بهما الدنيا."

تجمدت الدماء في عروق سارة. سقط كوب الشاي من يدها ليتناثر شظايا على الأرض. وقفت ببطء، وعيناها متسعتان من الصدمة:

– "لماذا تخبرني بهذا الآن؟ ما مصلحتك في نبش القبور وتدمير حياتي؟"

اقترب منها مروان، وهبط صوته إلى حد الفحيح:

– "لأن زوجك طارق... طلق تلك المرأة الضريرة من قريب."

شعرت سارة بأن الأرض تميل من تحتها:

– "ماذا؟ طلقها؟ هل تمازحني؟ أم أنك فقدت عقلك؟"

رد مروان بجدية قاتمة:

– "بالعكس، كنت فعلاً أريد إخبارك منذ زمن طويل. كل الأمور من حولنا لم تكن طبيعية. ما كنت يوماً مؤيداً لأمي في هذا المخطط الشيطاني. كيف وصلت تلك المرأة إلى زوجكِ وكيف نسجت خيوطها حوله؟ حتى الآن لا أعرف بدقة. ولو عرفت في الوقت المناسب، لما تركت الأمور تجري بهذه الطريقة المرعبة."

في تلك اللحظة الصادمة، وقبل أن تستوعب سارة قطرة واحدة من هذا السيل من الحقائق، رن جرس الباب بعنف. تحركت سارة كآلة مسيرة، وفتحت الباب. كان الطارق هو زوجها، طارق.

الفصل الثاني: الوجوه المستعارة

دخل طارق إلى المنزل بخطوات واثقة، يحمل حقيبة عمله، ملامحه وسيمة لكنها تحمل قسوة مبطنة. ما إن خطا خطوات داخل الصالة حتى تجمد مكانه. تلاقت عيناه بعيني مروان. ارتسمت على وجه طارق علامات المفاجأة والارتباك، وسرعان ما تحولت إلى نظرة غضب وتوجس.

– "مروان؟" قال طارق بنبرة حادة وهو يضع حقيبته جانباً. "ما الذي يأتيك إلى بيتي في هذا الوقت؟ ومنذ متى وأنت تجلس مع زوجتي في غيابي؟"

ساد صمت ثقيل، كانت سارة تنظر إلى زوجها وكأنها تراه لأول مرة. الرجل الذي شاركته الفراش لسنوات، الرجل الذي أنجبت منه توأمها، بدا لها الآن غريباً ومخيفاً.

تنحنح مروان، وحاول أن يستجمع شجاعته، وقال:

– "جئت لأعيد الحقوق إلى أصحابها يا طارق. جئت لإنهاء هذه المسرحية الهزلية التي بنيت عليها حياتك وحياة سارة."

ضحك طارق ضحكة ساخرة، لكن عروق رقبته البارزة فضحت توتره الشديد:

– "مسرحية؟ عن أي مسرحية تتحدث؟ سارة، ما الذي يخرف به هذا الرجل؟"

لم تجب سارة، بل كانت تنظر إلى طارق بعينين مليئتين بالدموع والاتهام. هذا الصمت جعل طارق يدرك أن السر الذي دفنه بعناية قد طفا على السطح.

التفت مروان إلى طارق وقال بقوة:

– "لقد أخبرتها بكل شيء يا طارق. أخبرتها عن السيدة الضريرة، وعن الطفلة التي وُلدت قبل عام، وأخبرتها عن طلاقك السري منها مؤخراً بعد أن استنفدت غرضك منها."

تحولت ملامح طارق إلى الغضب العارم، واقترب من مروان مهدداً:

– "أنت تلعب بالنار يا مروان. اخرج من بيتي فوراً قبل أن أتصرف معك بطريقة لن تعجبك!"

– "لن يخرج!" صرخت سارة فجأة، وكان صوتها قوياً ومزلزلاً لدرجة جعلت طارق يتراجع خطوة إلى الوراء. "لن يخرج حتى أفهم كل شيء. طارق... انظر في عيني وقل لي إن ما يقوله كذب! قل لي إنك لم تظلم تلك المرأة الضريرة، وقل لي من هو والد التوأم الذي ينام في الغرفة المجاورة؟!"

ساد صمت مرعب في الصالة، صمت يسمع فيه المرء دقات الساعة كأنها مطارق تهبط على الرؤوس. نظر طارق إلى سارة، ورأى في عينيها تصميماً واكتشافاً لم يعد ينفع معه الإنكار. تغيرت نبرة صوته، وفقد كبرياءه فجأة، وحل محله مزيج من الخبث واليأس.

الفصل الثالث: عمى البصيرة

جلس طارق على المقعد، وأسند رأسه بين يديه، ثم أطلق زفيراً طويلاً وساخراً:

– "حسناً... طالما أنكِ عرفتِ، فلا داعي للاستمرار في هذا القناع اللعين. نعم، فعلت ذلك."

تراجعت سارة خطوة، وشعرت بالغثيان:

– "فعلت ماذا؟"

نظر إليها طارق بعينين قاستين وقال بلا رحمة:

– "أنتِ تعرفين كم كنت مهووساً بإنتاج وريث يحمل اسمي. عندما حملتِ أنتِ أول مرة، كنت مرعوباً من التاريخ الوراثي لعائلتكِ. والدتكِ كانت ضريرة، وكنت أخشى أن تنجبي لي طفلاً أعمى يقضي حياته في الظلام، ويصبح عبئاً علي وعلى اسم عائلتي في المجتمع. لم أكن لأتحمل نظرات الشفقة من الناس."

استطرد طارق والجنون يلمع في عينيه:

– "في نفس الوقت الذي كنتِ فيه في المستشفى للولادة قبل عام، كانت هناك تلك المرأة الضريرة المسكينة تلد أيضاً في نفس القسم. اتفقتُ مع ممرضة، ودعمتها بالمال الوفير. عندما أنجبتِ أنتِ طفلتكِ الأولى... وجاءت كما كنت أخشى تماماً... ضريرة... لم أتردد لحظة واحدة. قمت بتبديلها. أخذتُ توأم الذكور من تلك المرأة، ووضعت طفلتكِ الضريرة في حضنها. تلك المرأة غادرت المستشفى وهي تظن أنها أنجبت طفلة تشبهها في عماها، وأنتِ استيقظتِ لتجدي في حضنكِ توأماً من الذكور الأصحاء. لقد حميتكِ وحميت نفسي من عار الإعاقة!"

كانت سارة تستمع وجسدها ينتفض بالكامل، والدموع تنهمر بلا توقف على وجنتيها. نظرت إلى مروان الذي كان ينظر إلى الأرض بخزي، ثم نظرت إلى طارق وقالت بصوت متهدج:

– "يا لك من وحش... يا لك من كائن مريض ومجرد من الإنسانية! بعت طفلتك، وسرقت أطفال امرأة أخرى لتشبع غرورك؟ وعمى الروح الذي يعيش في داخلك جعلك تظن أنك ذكي؟"

ضحك طارق بجنون وقام واقفاً:

– "ذكياً؟ بل عبقرياً! والآن، حتى لو عرفتِ، ما الذي ستفعلينه؟ هل ستتخلين عن الولدين الذين ربيتيهما لمدة سنة كاملة وأحببتيهما؟ هل ستعيدينا إلى الفضيحة؟ لقد طلقت تلك المرأة مؤخراً وغادرت المدينة، والتوأم لي قانوناً وحقاً!"

ساد هدوء مفاجئ ومرعب على سارة. توقفت دموعها فجأة، وحلت مكانها نظرة باردة وساخرة، نظرة جعلت طارق يشعر بالقشعريرة تسري في جسده. انحنت سارة قليلاً، ونظرت في عيني طارق مباشرة، وقالت بنبرة هادئة وقاتلة:

– "أنت غبي يا طارق... غبي لدرجة تثير الشفقة."

عقد طارق حاجبيه بغضب: "ماذا تقصدين؟"

قالت سارة وهي تبتسم ابتسامة مكسورة ومخيفة:

– "أنت تظن أنك تلاعبت بالقدر، وتظن أنك سرقت توأم ذكور من امرأة أخرى لتضمن نسلك 'النقي الأصحّاء'. لكن ما لا تعرفه، وما أخفته عنك والدتي وعائلتي طوال سنوات زواجنا... هو أن ذلك المرض الوراثي الذي يسبب العمى في عائلتي... لا يظهر أبداً على الإناث عند الولادة. الإناث يحملن الجين فقط وينقلنه، بينما يولد الذكور مصابين به بشكل حتمي بعد عامهم الأول!"

شحب وجه طارق تماماً، وتساقطت قطرات العرق من جبينه: "ماذا... ماذا تقولين؟"

تابعت سارة وهي تشير بإصبعها نحو الغرفة المجاورة، حيث بدأ صوت بكاء التوأم يعلو فجأة:

– "تلك المرأة الضريرة التي سرقت منها التوأم، لم تكن امرأة غريبة... إنها ابنة خالتك التي هاجرت منذ سنوات، والتي تحمل عائلتها نفس الجين الوراثي اللعين! واليوم صباحاً، أخذتُ التوأم إلى الطبيب لأنني لاحظت عدم استجابتهما للأضواء... وجاءت النتيجة الطبية لتؤكد أن التوأم قد فقدا بصرهما تماماً اليوم. طفلتك الضريرة التي هربتَ منها تعيش الآن مبصرة بقلبها في مكان آخر، بينما الذكور الذين سرقتهم وجئت بهم لتفاخر بهم الدنيا، سينزلون إلى الظلام الأبدي. لقد أعمى الله بصيرتك، لتنتهي برعاية طفلين أعميين... ليسا حتى من صلبك!"

سقط طارق على ركبتيه مصعوقاً، وتلاقت عيناه بعيني مروان الذي أدار وجهه عنه. وفي تلك اللحظة، تعالت صرخات التوأم من الغرفة المجاورة، لتمزق ما تبقى من صمت المنزل، تاركة طارق في ظلام روحه التي عماها الطمع.

*****

في تلك الليلة العاصفة قبل عام، دبر طارق مؤامرة تبديل المواليد داخل المشفى الحكومي مستغلاً وضع سارة تحت تأثير التخدير وجهل قريته الضريرة نورة. استغل طارق حاجة الممرضة سعاد المالية ورشاها لتبديل أساور الأطفال وملفاتهم، لكي يحصل على توأم ذكور أصحاء ويتخلص من الطفلة التي أظهرت مؤشرات ضمور بصري. شهد مروان جزءاً من ارتباك الممرضة وتصرفات طارق المشبوهة، فواجهه ليلاً قبل أن يتعرض للتهديد بالصمت القاتل طوال العام التالي.

3- عندما تكلم الجمعي

رواية قصيرة

إهداء

...لمن أوحت لي بالفكرة

ولمن كان لها الفضل في حث قلمي على المضي قدماً

.أم هيثم.. لك الامتنان والفضل

تقديم

قد يكون لأبطال السرد جذور واقعية تماماً.. ولكن حتماً للمؤلف اليد الطولى في تهيئة السرد لهدف نبيل نرجو أن نكون قد حققناه.

.كل الشكر لكل من كان قريباً منا

حب الحياة

لقد خذلتها وخذلته.. خذلتهما معا... مرة واحدة رأيته يدخن سيجارة في الشرفة.. وعندما أحس بحركة ما تقترب منه.. رماها في سلة القمامة ولما يمضي على حرقها دقائق.. لم أعد أراه معها يتغازلان... كان يخبئ دمعته الحزينة بعيداً عني.. لكنني كنت أقرأها بين جنبات حروفه عندما يقول لي:

-لا تتأخر عن الزبون رضي الله عنك..

كنت أقتلع نفسي لألبيه.. أعصر لساني لأحدث فلاناً وعلاناً ولا أتقن الحديث أبداً... ولم أكن أهلاً لتلك المهمة البسيطة جداً، كنت محلقاً حول نفسي لا أملك من رغبات الدنيا شيئاً سوى الأكل والنوم... لكنني كنت أملك عيناً ترى وأذناً تسمع، وعقلاً مدركاً على جسد قليل الحيلة...

كنت على يقين تام من أن المجاملات كذب بواح.. ما كنت أحب أي شيء أقوم به بدون رغبتي.. وأجد نفسي مطيعاً على عكس ما بداخلي... تلك النعم التي خربت لي كل دنياي... نعم ونعم ونعم... لأجد نفسي متنقلاً من الشرق إلى الغرب... قدماي ليستا لي.. ولا فمي ولا تفكيري... أراني رافضاً لكل اقتراح استقلالي أنفرد به وحدي.. ماسحاً شخصيتي في الأرض لأن أحداً لن يسمعني... لأقول دوماً:

-لا أعرف ما هي أحلامي.. ولا هدفي، ولا أدري ماذا أريد من الدنيا...

فتصرخ أمي بوجهي:

-لن أزوجك، بنات الناس لسن لعباً.. إنهن بشر يستحقون رجلاً حقيقياً...

ابتلع حروفها القاسية وأكررها على قلبي متألماً، لأذهب إلى العمل مع أبي بلا حرف نابي ولا رد مزعج.. لكنني كنت على يقين تماماً بأنني لا أستحق أي شيء في هذه الدنيا.. فأنا الولد الخائب الفاشل... لكننا كنا جميعا في قمة الرقي كما كان الناس يمدحون والدي:

-تعيش وتربي يا عم جمعي...

هكذا كنت.. أنا وأخواتي التسع والثلاثون... وحيداً ومدللاً غارقاً في النعم حتى درجة الظلم.. ومن هنا تبدأ حكايتي..

هناك بحثت عن السر

حسن الظن بالناس خصلة تكبد صاحبها عبئاً كبيراً، وتحمله بلايا ينوء بها. هناك في المسجد الذي اعتاد ارتياده والدي، قبع ذلك الغربي الجميل، كان يكلم الطلاب بعد جلسة أبي الموفقة، والتي كان يقصد بها إكرامهم والابتعاد عن فكرة نفيهم للخارج لأنهم يشاغبون، حتى تحفيزهم على حفظ آيات الكتاب العزيز تلقى منه رغبة جامحة، وهو يوزع ماله عليهم بكرم لا نظير له. حاولت مراراً أن أمرر فكرة لوالدي أن لو كان هذا الأجنبي يبغي الخير لتواصل معك دونهم، فما سمع مني أبداً.. كنت محقاً، ولكن انتبه بعد فوات الأوان.. وكان يكرر:

-ماذا سيفعل؟ قل لي؟.. لا شيء.. نحن الأقوى..

ما زال أثر صفعة أبي على خدي الأيسر... وما زالت تؤلمني، وما زال تشفي والدتي بي ماثلاً أمام عيني.. يحرقني ويقطعني إرباً... هطلت دموعي بلا إذن مني، وما كنت أعرف ماذا أقول، صامت كالموت.. أسبح

في ملكوت الفراغ ولا أدري ماذا أفعل، الدنيا تدور بي، ولا أفهم ماذا فعلت؟ ولا ماذا أفعل... أتخيلها صفعات وليست واحدة.. وحدها أختي سما التي كانت تحن علي.. كان الفرق بين عمري وعمرها ثلاثة عشر سنة... كنت أتخيلها أمي الحقيقية... كانت متخصصة بتأهيل من خرج من الحرب محطماً من الأيتام، وهي اليتيمة بيننا التي أساءت اختيار الزوج... نمت حينها في سريرها ولم أتجاوز العشر سنوات.. كنت أشعر بالدفء الوحيد عندها.. حتى أنها دافعت عني كثيراً عندما كانت مدرسة في مدرستي.. وهاجمها جميعهن، لإبداعها في التدريس وكسر الحزام النمطي فيه.. كانت تطبق نظريات درستها.. وأنتجت وأفادت وسعد الطلاب دون المشرفات حتى وصلت إلى عملها الأخير هذا.. نعم آنستني تلك الصفعة حليب أمي... ما عرفت الرد ولم يعلمني ذلك أحد.. ماذا أقول عندما أفهم خطأ؟ ممنوع مصادقة أجنبي حتى لو كان صديق الصف.. وممنوع الإتيان به إلى المنزل... عندما قالت لي سما أنها تلقت صفعة مماثلة عندما كانت في عمري.. ما تخيلت موقفها آنذاك وهي تقف أمامي الآن كالسيف.. إلا عندما كانت العصابات الصبيانية تلحق بي عندما كنا نخرج من المدرسة، لم يكن أحد بقادر على أن ينقذني، كنت فاشلاً في الدفاع عن نفسي، خاصة عندما كانوا يحصرونني في زاوية جدار بناء قريب ليوسعوني ضرباً لأني صامت لا أتململ ولا أتحدث، لأقف وحيداً عندما يأتي وقت الاستراحة. كل هذا يهون أمام ما فعله والدي قبل موته... صرخوا جميعهم في وجهي حينها:

-هل فعلاً كتب لك كل أملاكه باسمك أيها الأهبل؟

نعم أهبل لأني مدلل بقسوة.. ولم أتعلم يوماً كيف أفكر، ولا كيف أدافع عن نفسي ولا كيف أعيش بهدف واضح أسعى إليه، ولا كيف أتحدث مع الناس بتوازن وثقة.. بكل الأحوال.. وحدي فقط من يعرف الحقيقة ولن أقولها حتى يتأدبوا معي وسنرى.. يبدو أنهم لا يعرفون جيداً من هو ابن الجمعي... محمد الجمعي.. وابنه أحمد وحيدهم ومدللهم.. ولكن اليوم اختلف كل شيء... وستبقى ميسان أختي الكبرى المقربة مني دوماً ابنة أمي وأبي.

خالة أسمهان وأولادها الإحدى عشر

عندما فتحت أختي سما باب الحمام في ليلة العيد الموعودة عند اجتماع العائلة الكارثي، كان مرئد يريني عورته ويشجعني على نفس الفعل، ما كنت أدري لماذا فكر بهذا حيث بقيت متجمداً حتى صرخت أختي فينا نحن الاثنين:

-افتحوا الباب أم أكسره!

كانت صمام الأمان في عهد الفوضى عندما نجتمع، ذلك لأن معلمة الجامع القريب فطنت وقدرت ما كان يفعله أبي لكل حفاظ القرآن، حيث كان يعطيهم مالاً لكل حافظ فرحاً بذلك، فهمست بأذن أختي التي كانت صديقة والدتي تزورها بين الحين والحين حتى صارت تأتيها وتحفظ القرآن، وتحاول الإتيان بأخواتها بقدر الإمكان. لم يرد أول الأمر مرئد حتى فتحت الباب وهو يشجعني معاكساً ألا أرد أبداً، فارتدى ملابسه حتى فاجأته بصفعة على وجهه تركت أثراً واضحاً، واضعاً يده على خده مزوراً وغاضباً، منادياً أمه التي هرعت من فورها وهو يشير إلى سما فصفعتها بدورها، وعلا الصياح هنا وهناك. ناداني والدي عندما سمع من سما تقريراً وما كنت أدري حينها كيف فهمت الموقف.. أغلق الباب وسألني بحزم دون غضب:

-ماذا جرى؟

لا أدري كيف تلعثمت وترددت وما عرفت كيف أصف الموقف أبداً، فصفعني هو الآخر وسط دموع صامتة تشرح خيبتي في وصف الموقف الرهيب.. وتداولوا الثرثرة جميعاً بين سخرية وغضب ورفض من طرف أمه أن مرئد لن ولم يفعل وهو المؤدب الخلوق!

كان للموقف تتمة ابتلعتها لأن أحداً ما لن يفهمك.. لكن زوجة أبي التي تكبر والدتي بعشر سنوات لم تعد تلاطفني ولا تكرماني بمأكولاتها اللذيذة، كانت تغطي جهلها العلمي بكرمها اللامتناهي، بينما والدتي

أصغر الزوجات الأربع كانت قد عرفت أنها أتت آخراً وقد مل من كل شيء.. درست وعملت وكسبت.. ورتبت غرفة نومها الجديدة وباعت واشترت وصنعت لها كياناً مستقلاً..

في هذه الأثناء كانت أم سمعان المربية والمشرفة العامة على المنزل، تلملم وترتب وتطط بصمت.. وتعمل بروتين كامل مذ عرفتها... ولا أعرف غيرها مدبرة منزل. كانت تدعوني بالدكتور لا أدري لماذا... تحترمني من حيث لا أعرف كيف أمدحها.. ولا أشكرها لعملها المنظم والمتقن.. أترك لها غرفتي مقلوبة رأساً على عقب.. وبلمح البصر تجعلها جنة برائحتها الزكية، التي تدفعني لمزيد من الفوضى.. كانت أختي سما تدللها وتقدم لها القهوة لمزيد من فواصل الراحة، عندما قالتها بصوت خفيض:

-أولادي معظمهم في دار الأيتام لأني لا أملك لقمتهم...

عندها أحسست بماء مغلي يقع على جمجمتي.. وعقدت العزم على مساعدتها ولكن كيف؟

مساءً كنا نجتمع في غرفة الجلوس، يأتي من يأتي وينشغل في غرفته من ينشغل، ولكن عندما يأتي والدي فهذا يعني اجتماعاً ملزماً مهماً.. مهما كان من الأمر... كان الموعد الساعة التاسعة بعد تناول وجبة غداء متأخرة بسبب عمل والدي ورجوعه متأخراً دوماً.. كنت قد اخترت مجلساً قرب ميسان، فقد كنا نتهامس كثيراً، أشكو لها مشاكلي المدرسية، وهي توضح وتشرح وتقترح حلولاً تخيرني أن أختار منها.. فجأة دخلت علينا بنت خالتي الثالثة كفاية، محمرة الوجه غاضبة وقد وضعت محفظتها بجانب الغرفة قائلة:

-يابا لم أعد أريد العودة لزوجي..

جمدنا كلنا فقد اختارت بنفسها زوج المستقبل، ورضيت بفقره.. وصمتت زمناً طويلاً اختفت فيه عن الأنظار حتى بدأ عتاب والدي يصل إليها خلسة من أخواتها وهي لا تقترب ولا تأتي...

-مالك يابا؟

-عندما أهدأ نتكلم سامحني يابا..

وأخذتها والدتها إلى الداخل وطال الحوار بينهما... وجاءت صينية الشاي وبدأنا نرتب جلستنا كي نتذوق بسكويت الحاجة أم سمعان اللذيذ.. وبعد لأي دخلتا وجلستا آخر الدائرة بصمت وعيوننا متسمرة في قسمات وجه كفاية، حتى نبش والدي الموضوع عنوة:

-يابا قولي شو فيه؟

-مت من الجوع.. من غير الطبيعي أن تدعموني دوماً وهو الكسول الذي لا يعمل.. وفوق كل هذا وذاك أريد أولاداً وهو عاجز عن هذا، حاولنا عدة سنوات عبثاً..

تكهرب المجلس وكأن على رؤوسنا الطير.. هو نذير طلاق ما سمعنا به في العائلة، فمن عادة والدي أن يهمس في أذن كل عروس حسب ما تشرح لي أختي:

-يابا ما في بنت تترك بيت زوجها وهي على عصمته، وما يقال له حرد ممنوع عندنا.. تبقين معه على الحلو والمر..

لكن كفاية جميلة العائلة، والتي حازت على البياض الأشهى، والعينين الخضراوين والطول الممشوق، أبت إلا أن تضع نفسها في المكان المناسب، فأخطأت تلك المرة... وكلما حاولت الصياح أمسكتها والدتها لتسكتها.. حتى خرجت منها جملة متلفتة:

-أريد الزواج من غني..

صمتنا جميعاً.. بعد ثرثرة علت، وغضب صامت من أبي.. وزوى والدي بين عينيه.. وقد كظم غيظه.. وكالعادة نوى دخول المسجد في اليوم التالي ليوزع على فقراءه مالاً يسد به ثغرة في حياته. وددت لو قلت له حينها:

-يابا، أخواتك الأرامل الثلاث بحاجة لك أكثر، فقد تأخرت هذا الشهر أسبوعاً عن المعونات.

لكنني كما أتوقع سوف ينهرني قائلاً:

-أنا أعرف متى يحتاجون لي.

فلذت بالصمت.. كالعادة.. والذي كانت كفاية تنفر مني لأجله.. وتنظر لي نظرة غريبة.. وكأنها دونية.. كان لسان حالي يقول دوماً:

-أنت لا تشبهين أحداً.. وأظن أنك لست أختي..

لكنني لذت بالصمت أيضاً.. اتقاء للسانها الحاد الزوايا..

وما زال والدي كلما نظر إلى المرآة ورأى طوله الفارع وقوامه المتناسق، وثوبه النظيف يقول:

-ما زلت شباباً أبو محمد.. ولكن الشيب وقار فمتى أشيب؟!!!

أيها الجمعي إنك تركي عربي!

فعلها أخيراً وتكلم مع والدي بكلمات مكسرة، عربية حيناً وإنجليزي حيناً آخر، حتى انتابت الدهشة والدي وهو يكرر علينا كلما عاد من المسجد:

-أنا نسلي تركي عربي.. هكذا قال لي جورج، وسوف أفيد من هذا جداً جداً..

وترد عليه أمي:

-وماذا بعد؟ ماذا نفعل؟

-لا أدري، لفت نظري هذا الأمر لا أدري لماذا..

الحياة لعبة

كان معظم أقراني في المدرسة يسألونني:

-احك لنا عن خلافات زوجات أبيك، مؤكد لديكم قصص وحكايات..

كانت تنبيهات والدتي تلوح في الأفق فتلجمني عن الكلام.. ورغم ذلك، كنت أشعر بتهكم ضمني يمنعني من الكلام... فأنظر إليهم بلا رد.. فينصرفون منزعجين مني وكأني عدوهم.. كان شعور خفي يتشعب في روحي أن أحداً ما لا يحبني.. وأنني لا شيء البتة في هذه الحياة.. خاصة عندما ينفجر والدي في وجهي:

-عبر، تكلم، احكِ..

فيلجمني من جديد.. على كل حال أعرف الرد على سؤال أصدقائي كما قالته والدتي:

-عندما يفرض الأب سلطته بحكمة تصمت كل الأفواه عن التعبير الخطأ.. وتصبح الطاعة ضريبة أداء واجبات الأبوة الحقيقية. ولأننا نخشى الحسد لا تتكلم عنا البتة في أي مجلس يا أحمد..

تلك التنبيهات التي جعلتني أخشى التفوه بأي كلمة تجعلهم ينفجرون في وجهي وكأني عامل تنظيفات عليّ تنظيف حياتهم من أدران ألسنتهم النزقة. هي لعبة الريسكريتو Rescreatu التي لو لم تزر بحيرتها كل يوم غداً عددك صفراً وخسرت كل شيء.. هكذا الحياة كما أراها.. إن قصرت يوماً بحق نفسك ستخسر كثيراً.. لكن المشكلة في التنفيذ.. كانت كفاية كلما غضبت صبت جام غضبها عليّ وحصرتني في زاوية غرفة الجلوس قائلة:

-يجب أن تعلم أنك لست أخي..!! أخي قوي الشخصية، جميل الكلام، مجتهد، وأنت لست كذلك..

كنت أحار جواباً.. هل لأنني لا أشعر برغبة في الكلام؟ هل وجدتني غريباً عنهم؟ كيف لو قلت لها نفس الشيء؟ لا أراها أختاً لي البتة.. غريبة في كل شيء.. وأذهب لأمي أسر لها بما حصل فتقول:

-لا شأن لنا بأحد.. تبقى أختك على كل حال.

ليبقى الأمر عالقاً في ذاكرتي يثير فضولي لأستمع لكل شيء من حولي بدقة متناهية..

حتى جاء خاطب لها واضح عليه أمارات الغنى والانشراح.. وتبسم ثغرها الجميل انتصاراً ورغبة.. لتترك أوراقاً لها على منضدة غرفتها فأتلصص لأقرأ ما كانت تكتب خلسة:

»حياتي.. اختياري...

وقراراتي.. مسؤوليتي...

ومصيري.. مشكلتي أنا...

ما دمت لا أسألك حلاً لمشاكلي ولا تمويلاً لخططي ومشاريعي ولا وقتاً لإدارة شؤوني والقيام بمهام بالنيابة عني... فلا يحق لك أن تتدخل في قراري وتصميم حياتي...

إن كنت تحبني فشكراً لعواطفك النبيلة... استثمرها في الدعاء لي بإخلاص ودعمي في ما يحقق سعادتي أنا بطريقتي أنا...

انصحني بصدق وليس بقهر...

لا تدّعِ محبتي وتنصب نفسك قاضياً علي وتصدر أحكامك وتتابع تنفيذها... فهذا ليس من صلاحياتك...

لا تضعني في الميزان معك في الكفة الأخرى.. أنا لست أنت... ولا أريد أن أكون.. وليس ضرورياً أن تكون قادراً على فعل ما أفعل... فأنا أيضاً لا أستطيع أن أفعل ما تفعله... فذلك مما فضلك الله به علي وأنا رضيت به.. فارضَ بما فضلني عليك.... ولا تحاول تحطيمي إن أنت لم تستطعه....

لست عبدك لتحاسبني... لي رب له مني الطاعة وعليه الحساب....

أنت أخ وصديق وقلب محب.... تنصح.. تدعم.. تؤيد... تخالف... قد توافق وقد لا تفعل... ولكن ليس لك عليّ سلطان....

وإن لم تكن كذلك... فلا تتوقع أن أقبل منك أن تكون تلك العلقة التي تمتص دمي وتطالبني بالتغذية الجيدة لكي يكون الدم الذي تمتصه أكثر فائدة لها....

لا تضطرني للكذب عليك... أنا أحبك.. وأكره الكذب... لا تجعلني أكرهك.. وأمارس الكذب....

التفت لما رزقك ربك.. ووهبك... واستثمر طاقاتك في ما ينفعك.. لا في ما يضرني...

أنا أتركك وشأنك تعيش بسلام... فدعني وشأني أعيش بسلام أنا أيضاً.

إن لم تكن تستطيع أن تكون إيجابياً معي... أكتفي منك بالحياد وأشكرك عليه أيضاً... وتأكد أني لن أقبل منك التدخل السلبي.. فأنا لست ضعيفة... وسأدافع عن حياتي ورأيي وقراري بكل ما أوتيت.... وأنت في النهاية من يصنع قيمته عندي.. بعمله وليس بتسلطه... وأنا من أقرر منزلتك... وبالتالي.... أثرك«....

ما عرفت من تقصد!، ولا من عنت، ولكن ما كنت أكيداً منه، أنها متفردة في كل شيء، تريد أن تحيا بكامل مسؤوليتها، تعارك الحياة بدلال وكأنها عبقرية زمانها، أو أن الدهر لم يلد مثالها..

كان رجلاً بكل المعاني يملأ ثيابه كما يقال.. ووالدته قد تحلت بالذهب حتى لتخال أنها دكان متنقل.. وكالعادة ينبهها والدي ألا تتسرع في حكمها وألا تعود ثانية خالية الوفاض متذمرة رافضة وناكسة على حياتها.. كانت سهرة خميس مخصص لكفاية تلك الأخت التي ليست كذلك.. وبدأت مراسم جهاز البنت ومشاوير السوق وذهاب الزوجات الأربع مرات ومرات ونقود تتطاير لتجهز الجميع.. حتى جاء اليوم الذي شعر والدي بالحرج المادي.. ليلتها قال:

-لن أدفع بعد الآن فلساً واحداً.. تدبروا أمركم.. عندي استيراد بضاعة وأنا بحاجة للفلس الواحد..

عندها صمتوا ووجموا ونظروا ببعضهم. ونحن ننظر خلسة ونضحك ساخرين مما فعلوا من إنفاق بلا حكمة لكأن السوق خلق لهم، وهذا ما جعل أم سمعان سعيدة حيث كدست أكياس صدقات الملابس لتوزعهم على حيها الفقير.. وزارت والدة العريس الجديد دارنا معلنة ضرورة الإسراع في الإجراءات لأنه سوف يسافر قريباً للأردن.. فلديه عمل هناك ينتظره.. وافقت كفاية وكأن الأمر بهذه البساطة، وقد أكد والدي أن ما وصله عنه كان حميداً.. وبقي أمر تهدئة والدة كفاية أمراً محرجاً وسط تسرع أهل العريس الجديد..

-الأمور بخير لماذا التباطؤ؟

قالها أبي وقد زمجرت زوجة أبي مطالبة بخطبة متواضعة ليتعرفا على بعضهما.. لكن كفاية وافقت وسط غضب مكظوم وانزعاج مكتوم وكلام غير منطوق.. ورحلت كفاية بين ليلة وضحاها.. وما زال والدي كلما عاد من عمله متعباً ورحبت به إحدى أخواتي يقول لها كالعادة:

-أنت ابنة من؟

قد لا أملك رداً لما كان يصدر من والدي.. حيث يتندر الجميع ويحاولون تصحيح الأمر بنكتة نضحك لها كلنا.. ولكن لم يكن يدري أنني أعلم عن العائلة ما لا يعرفه هو نفسه.. رغم كل ذكائه ومحاولته جمع ماله لضرورة لديه.

عندما توفيت زوجة أبي الأولى

كان وجه والدي عندما صرخت ابنته الكبرى ليلتها أحمر قانٍ:

-أرسلوا بطلب الطبيب... أمي لم تعد تتكلم ولا تتحرك..

خرجنا جميعنا من غرفنا ملهوفين، وكأننا في حلم، كانت أكثرنا صحة وقوة، تضاهي والدي حجماً، مكثنا حولها وقتاً وافياً، حتى قال والدي بحزم: اخرجو لقد نفد هواء الغرفة، على ماذا تتفرجون؟ سوف تعود إلى صحتها وعافيتها وهمتها، الأمور بخير..

لكن والدي لم يكن بخير أبداً.. جاء الطبيب بعد وقت ولم يدخل الغرفة، وقام بفحص ضغط والدي!

-ضغطك مرتفع جداً، هل تعاني من ضغط من قبل؟

-لا أبداً.. المريضة زوجتي ولست أنا..

دخل الغرفة صامتاً ولم يرد على والدي بكلمة.. وتفحصها ملياً، ونظر في عينيها السوداوين الساكنتين.. كنت أحمل عرفاناً بقبول والدي حضوري حينها..

نظر في عينيه صامتاً.. ففهم والدي الأمر.. وهطلت من عينيه دموع حارة.. صامتة، وازداد احمرار وجهه. غطى الطبيب وجه زوجة أبي وجلس يملي عليه نصائحه ويكتب على ورقة بخط غريب عجيب أدوية لآتي بها... وكنت أكيداً من أن فضولي لن يمنعني من معرفة المشكلة من الصيدلي.. لكن والدي خطف الورقة مني وقال سآتي بها لاحقاً، وكأنه فطن لمؤامرتي.. عرفت بعد وقت أنه غدا مريضاً بضغط الدم... كان يحبها زوجة وأماً وقائدة منزل ناجحة وحازمة.. كانت جملتها الأثيرة عندي:

-سيكون لك شأن يا أحمد.. فكن قوياً.. وعادلاً..

لكنني لم أكن كذلك البتة، وما زلت أتذكر وجه أبي عندما توفيت زوجة أبي الأولى، وما كانت تشكو من علة، إنما عندما بلغت الستين بدأت الأمراض تغزوها، فتحزن على نفسها بعد أن كانت تفخر ببيئتها البدوية والتي تركت بصماتها على جسدها ووجهها العربي الأصيل، وكيف كانت فريدة نفسها ودرست وعلمت بناتها أن يكافحن في الحياة بقوة ودون الاعتماد على أحد.

كانت قد قضت سنة في الأمراض وهي التي حرصت على الغذاء الصحي والرياضة الخ..

عجيب كيف ذكرني ذلك بفرحتها بقدومي.. كما روت لي ميسان كيف استقبل والدي قدومي للحياة، وكيف أتيت بعد تسع وثلاثين بنتاً، ورغم رضاه وتقبله لقدره، لكنه لم يستطع إخفاء الفرحة وتقبل بشرى الداية أو طبيبة البيت بسرور عظيم، حيث جمع كل بناته ووضح لهن أنه أخوهن الوحيد، وعليهن مساعدته ليصبح رجلاً ويكون باراً بأهله، ورغم تداول الجميع كثيراً من النظرات خلسة، إلا أن حزم والدي حسم الموقف ونظراته دفعتهن للقول بلهجاتهن المختلفة:

-بعيوننا يا شيخ..

كان والدي يهدي الأم في كل ولادة متعبة هدية ذهبية، لكن والدتي طلبت طلباً غريباً:

-أريد وردتين كبيرتين من الذهب أضعهما على نعلي المنزلي..

همسها في أذنه التقطته بعض البنات اللواتي حضرن المباركات والتهنئات ومعسول الكلام... وغدا أحمد ابن أم الوردة الذهبية!!! كان يحلو لكفاية كلما وجدت أحمد صامتاً ينظر خلسة، لتعتبره جاسوس العائلة.. كان الصمت هو المستفز الوحيد لها.. وها هي سافرت مع زوجها بعد حفل كبير قدمه لها عريسها الغني كما كانت تحلم وتفكر.. لكن ما زلت مصراً على أن لكفاية قصة ما لا أعرفها.. فهي لا تشبه أحداً.. وللفارق في العمر بيننا فأنا لا اعرف كل شيء وأنا الصغير.. مرضت كالعادة عندما فارقتنا، لا اعرف كيف حدث هذا.. أحسست بخوار في قوتي وعزمي وحرارة مرتفعة، ولا أعرف كيف حصل هذا حتى الأدوية لم تنقذني من علتي، ولم تفلح الكمادات الباردة ولا دعاؤها لي حتى... أخذتني أمي للحاجة ناجية... كانت تقرأ في كتب أدعيتها مع مرافقة لها ولا تتوقف، حتى رأت أمي من وراء نظاراتها السميكة، كانت ضئيلة جداً في حجمها ورغم أنني لم أكن كبيراً جداً لكنها كانت جداً صغيرة الحجم وخاصة يديها، لكن النور

الذي في وجهها أبهرني، بابها المتهدم ومنزلها النظيف جداً المتواضع.. لم تكد تبدأ والدتي بالحديث حتى أكملت وحدها:

-نجم ابنك خفيف يصيبه الحسد بسرعة..

وغدت تضع يدها على رأسي وتقرأ الفواتح وسورة يس وأدعية لا أعرفها...

كانت أمي تحاول رفع معنوياتي بمدحي وتري الجارات رسمي وشعري.. وكنت أدري جيداً أنني لا أقوى على النظر في وجوههن حتى، وهن يرمقنني بنظرات ما أحببتها

ما زالت صورتها مطبوعة في ذاكرتي ولا أدري لماذا بكيت كثيراً عندما ماتت.. كانت حينها تتكلم كثيراً كأنني أنا من يتكلم.

-أنتم لا تشعرون به.. لغة الأوامر ليست تربية.. هناك القرب والحوار ومعرفة سر الآلام الشخصية.. هناك المتطلبات الشرعية التي لا يدركها الأبوان، فهو ليس بكائن يأكل ويشرب بل ينمو بالعواطف والمحبة الحقيقية.. التفرغ للأولاد مهمة من ينجب.

تصلب وجه أمي وكأنها تسمع جديداً.. ولم تنبس ببنت شفة.. بعد رحيلها لم يعد أحد يرقيني.. كنت أتذكر قليلاً وأبدع قليلاً من عندي.. ثم صرت أحفظ كثيراً من آي القرآن.. وأدعية كثيرة.. وكانت أختي ميسان مثلي.. لكنها أضعف من أن تجرب فترقيني.. قالت لي يوماً

-جرب سورة الحديد، ستصبح صلباً..

ففعلت.

سر الأوراق ورحيل الوالد

مرت الأيام متثاقلة، ومات الوالد "أبو محمد" فجأة كما ماتت زوجته الأولى من قبل؛ صامتاً في فراشه، تاركاً خلفه تركة هائلة من العقارات والدكاكين، وأسطولاً من الذكريات، وتلك الإشاعة الكبرى التي هزت أركان البيت: «لقد كتب الجمعي كل أملاكه باسم أحمد«!

اجتمعت العائلة الكبيرة. الأخوات التسع والثلاثون تجمهرن في صالة المنزل الفسيحة. تعالت الأصوات، وتوجهت الأبصار والاتهامات نحو أحمد:

-كيف أخذت كل شيء أيها الأهبل؟

-هل استغللت صمتك وغفلة أبينا لتستحوذ على حلالنا؟

كان أحمد يمتص الصدمة، عيناه تنظران إلى ميسان وسما اللتين كانتا تقفان في الخلف بنظرات شفقة وحيرة. لأول مرة، لم يبكِ أحمد، ولم تشعر وجنتاه بأثر صفعة قديمة.

الحقيقة الغائبة

فتح أحمد حقيبة أبيه الجلدية القديمة أمام الجميع. أخرج منها المكتوب والوصية التكليفية وليست التمليكية.

لم يكتب الوالد الأملاك باسم أحمد ليحرم بناته، بل كتب أمانة إدارة الأوقاف والتركة باسم أحمد، بشرط أن تُوزع الأنصبة والشرع على كافة البنات والزوجات بالعدل، وأن يُخصص ثلث التركة لدعم دار الأيتام التي تعمل بها "سما"، ولإعالة أرامل الحي والمحتاجين الذين كان يرسل لهم المعونات، ولتأمين حياة "أم سمعان" وأبنائها.

كان أبي يعلم أن أحمد هو الوحيد الذي لن تطمع نفسه في مال، والوحيد الذي يمتلك قلباً ناصعاً لا يحقد ولا يظلم أحداً، لأنه لم يتعلم طمع الحياة.

عندما تكلم الجمعي

وقف أحمد في منتصف القاعة. اعتلى الكرسي الذي كان يجلس عليه والده. لم يعد ذلك الطفل الصامت الذي يبتلع حروفه، ولا الولد الخائب كما كان يتوهم.

نظر في وجوه أخواته، وقال بصوت وثيق، رصين، أذهل الجميع:

» –يا أخواتي.. يا بنات الجمعي.. طالما اعتقدتم أن صمتي عجز، وأن طيبتي فضلٌ منكم عليّ. لقد عشت سنوات طويلة بينكم جسداً بلا صوت، يسمع الشكوى، ويتحمل الملامة، ويكتم السر. لكنني اليوم أتكلم لا لأدافع عن نفسي، بل لأعيد لكل ذي حق حقه«.

التفت إلى كفاية وقال:

» –وأنتِ يا كفاية.. قرأتُ يوماً كلماتكِ التي كتبتِ فيها أن مصيركِ مسؤوليتكِ، وأنا اليوم أرد لكِ حريتكِ كاملة، وحقكِ في مال أبيكِ لتصنعي به ما تشائين دون تسلط أو قهر«.

ثم التفت إلى أم سمعان، وأخرج لها صكاً يضمن تعليم أبنائها وخروجهم من دار الأيتام ليعيشوا معها في كرامة.

محراب القوة والنهاية

خرج أحمد إلى الشرفة، ذات الشرفة التي رأى فيها والده يوماً يخبئ دمعته وسيجارته.

فتح ذراعيه للريح الصباحية. تنفس بعمق لأول مرة في حياته. لم يعد "ابن الجمعي المدلل القليل الحيلة"، بل أصبح الجمعي الذي تكلم بالعدل والحكمة.

أدرك أحمد أن صمته الطويل لم يكن ضعفاً، بل كان خبيئة نضج، ومحطة تجميع للقوة. وأن سورة الحديد التي نصحته بها ميسان، قد جعلت قلبه بالفعل صلباً كالإيمان، ورقيقاً كرحمة الرحمان.

ابتسم للماء والسماء، وقال في سره:

» –الآن يا أبي.. أستطيع أن أكون الرجُل الذي أردت، بالعدلِ لا بالقسوة، وبالكلام الذي يداوي لا الذي يجرح«.

تمت بحمد الله

د. ريمه عبد الإله الخاني

4-نجاحات صغيرة

رواية قصيرة

الفصل الأول: تحدي القاعة رقم(4)

مازال ومنذ عقود وهو يعتلي منصات التدريس، يصول ويجول في هذا الاختصاص الصعب والمعقّد، حتى صار مرجعاً يشار إليه بالبنان، وبعبعاً تتناقل هيبته الأجيال. وحين سألوه يوماً بشيء من العتب: «لماذا تتعمد وضع أسئلة معجزة ومستحيلة الفهم؟»، أجاب باختلاء وغرور: «العلم لا يُعطى إلا لمن كابده، والسهل يفسد الأذهان.«

لكنه حتى اللحظة، وهو يقف على عتبات العقد السادس، لا يدري ما الذي أوقعه في تلك الخديعة النرجسية!

بداية الحكاية كانت في جلسة ثرثرة ساخنة بنادي الأساتذة، حين استفزه زميله الشاب بتحدٍّ خبيث: – «يا أستاذنا الكبير، من السهل جداً أن تختبئ خلف مفاتيح الإجابات الجاهزة. هل توافق أن تجلس معنا غداً في قاعة الامتحان، وتجيب عن ورقة الأسئلة التي وضعتها بنفسك؟ وليصححها دكتور من خارج الجامعة ليكون التقييم حاداً وعادلا«!

اشتعلت الحمية في صدره، فقبل التحدي مكابرةً، وهو في قرارة نفسه يعلم يقيناً أنه نال شهادته الأولى بالكاد قبل أن تطحن السنوات ذاكرته، وأن هيبته الحالية إنما هي نتاج ركام من الهالة الوهمية لا العمق الحقيقي.

في صباح اليوم التالي، وجد نفسه يجلس في الركن الأقصى من القاعة رقم (4)، مطأطئ الرأس، ممسكاً بقلمه كمن يمسك حبل مِشنقته. وما إن وزّع المراقب الأوراق حتى تسرب العرق بارداً على جبينه.

قرأ السؤال الأول: فبدا له طلاسم هندسية مبهمة!

قلّب الصفحة إلى الثاني: فكأنه يقرأ بلهجة قوم اندثروا!

مرت الساعتان كأنهما دهر؛ وخرج حاملاً ورقته التي لم يخطُ فيها سوى اسمه، وهو يجر أذيال الهزيمة وسط نظرات تلامذته الحائرة.

الفصل الثاني: سقوط القناع والهروب

بعد أسبوع، عُلّقت النتائج على اللوحة الزجاجية في مدخل الكلية. تجمهر الطلاب بذهول، وكانت الصدمة مدوية: لم يحصل الأستاذ القدير على علامة صفر فحسب، بل كتب المصحّح الخارجي ملاحظة بخط عريض بجاحظ: «إجابات صبيانية، لا علاقة لها بالمنهج.. رسب بجدارة.«!

لم تتحمل نفس المتعجرف وقع الفضيحة؛ فاختفى عن العيون تماماً كأنما ابتلعته الأرض. ضجت أروقة الجامعة بالتأويلات، فمن قائل إنه أُصيب بانهيار عصبي، ومن قائل إنه فرّ إلى خارج البلاد خوفاً من تآكل الأسطورة التي صنعها لنفسه.

وبعد عام كامل من البحث المستمر والتكهنات العبثية، وقعت المفاجأة التي لم تكن في الحسبان. كان أحد طلابه النجباء يقود سيارته في حي شعبي مهمل بأطراف المدينة، يبحث عن نجار لإصلاح باب

مكتبه المتهالك. توقفت عيناه فجأة أمام ورشة متواضعة للخشابة، كُتب على لافتتها القديمة بخط يدوي متواضع: (منجرة الأمانة.(

اقترب الطالب ببطء، وهناك، وسط نشارة الخشب ورائحة الصنوبر، رأى «الأستاذ القدير» بنفسه! كان يرتدي مئزراً مهترئاً، ويده المرتجفة تقبض على منشار يدوي يقطع به لوحاً خشبياً بعناية بالغة. التقت عيناهما لثوانٍ معدودات؛ فخجل الأستاذ، وأدار وجهه نحو الخشب، وابتسم بمرارة واضحة قبل أن يقول بصوت خفيض يسكنه السلام العجيب:

– «صدقني يا بني.. قطع الخشب أصدق بكثير من تلك الأسئلة المعجزة؛ هنا.. إذا لم تكن القطعة متقنة، تهاوت الطاولة فوراً، ولا ينفع معها التمائم ولا هيبة الألقاب.«!

الفصل الثالث: مواجهة المنزل وكسر الزيف

كان صمت البيت بعد غروب الشمس أثقل من الحجارة. لم تكن رائحة نشارة الخشب التي تنبعث من ثياب «خالد» تضايق زوجته «سعاد»، بل على العكس؛ كانت تجد فيها رائحة الصدق الذي غاب عن حياتهما لسنوات. لكن المشكلة لم تكن في الخشب، بل في العيون التي باتت تنظر إليه داخل هذا البيت.

تذكرت سعاد كم كررت على مسامعه في أيام عزّه الأكاديمي، حين كان غروره يملأ الآفاق:

– «يا خالد، عندما ترتقي مرتبة عالية ما، لا تراهن عليها بكل رصيدك، ولا تدع التباهي يسلبك ما وصلت إليه بعناء. المظهر ليس كل شيء«.

كانت تدرك حدود إمكاناتها مبكراً؛ حين اكتشفت قبل سنوات أنها لا تملك مهارة الحفظ ولا الإمكانيات الأكاديمية العالية، لم تكابر، بل تحولت ببساطة وبساطةٍ آمنة إلى مدرسة صغيرة من منزلها،

تدرّس الأطفال الدروس الخصوصية بما تستطيعه وتتقنه. كانت تردد دائماً أمام مرآتها: «جميلٌ جداً أن ندرك إمكاناتنا الحقيقية ونستثمرها بنقاء، بعيداً عن الأقنعة.«

لكن ما لم تتوقعه سعاد مطلقاً، ولم تحسب له حساباً، هو ذلك التحول البارد في معاملة الأبناء لوالدهم. لقد سقط الصنم من فوق الرف! لم يعد في نظرهم «البروفيسور» الذي يتباهون باسمه في صالونات أصدقائهم، بل صار «مجرد نجار» في حي شعبي مهمل. انعكس هذا الانكسار فوراً على علاقاتهم الاجتماعية؛ انسحب الابن الأكبر من لقاءات زملائه، وتجنبت الابنة دعوة صديقاتها إلى المنزل، وكان صمتهم على مائدة العشاء أشد إيلاماً لقلب خالد من كل كلمات التشمت التي سمعها في الجامعة.

وقفت «سعاد» في منتصف الصالة، تتأمل وجوه أبنائها الثابتة على غضبٍ مكتوم وشرود حائر. وقالت بصوت هادئ ولكنه يحمل من الصلابة ما يكفي لإيقاف كل هذا التهرب:

– «إلى متى سنظل نأكل صمتنا على هذه المائدة«؟

تبادل الأبناء النظر، قبل أن ينفجر الابن الأكبر «عمر» بنبرة ضاق بها ذرعاً:

– «أمي! ألا ترين ما حدث؟ كيف نطالب بالتعامل الطبيعي والناس في الكلية وخارجها لا يتحدثون إلا عن سقوط الأستاذ الكبير؟ أصدقائي يسألونني بفضول لئيم، وبعضهم يهمس في ظهري! لم يعد بروفيسوراً، إنه الآن.. نجار في حي مهمل«!

تدخلت أخته «سارة» بصوت خفيض تشوبه الغصة:

– «أنا لم أعد أجرؤ على دعوة صديقاتي إلى البيت يا أمي.. كيف سأشرح لهن أن والدي ترك منصة الجامعة وقاعات المحاضرات ليمسك المنشار والقدوم«؟

شعرت سعاد بألم ينخر صدرها، تنفست بعمق، وجلست أمامهما مستندة بكفيها على الطاولة:

– «هل تعرفان ما هو الخجل الحقيقي يا أبنائي؟ الخجل الحقيقي هو أن نعيش خلف أقنعة كاذبة، نتظاهر بالعظمة ونحن نخشى الامتحان! أباكما لم يخسر عقله، لكنه خسر وهمَ الجاه الزائف. هل كان يعجبكما وهو يقف أمام الطلاب يضع أسئلة معجزة ليثبت لهم أنه الأذكى، بينما هو يخاف في داخله أن يُكتشف أمره«؟

ثم تابعت وهي تبتسم ابتسامة دافئة:

– «النجاحات الصغرى يا بني.. هي أن تنام ليلاً وأنت تعيد بناء نفسك بشرط الصدق، لا أن تعيش بروفيسوراً على اللوحة ونفسك مكسورة في الداخل. والدكم لم يسرق، ولم يرتكب جُرماً؛ هو فقط يحاول أن يكون صادقاً مع نفسه ومع الحياة.. ودورنا الآن ليس أن نزيد خجله من أخطائه، بل أن نكون الجدار الذي يستند عليه ليعرف قدره الحقيقي«.

الفصل الرابع: قرار العودة وشجاعة الصدق

دخلت سعاد إلى الورشة الصغرى في عتمة المساء. كانت رائحة نشارة الخشب تعبق في المكان، وزوجها «خالد» يقف أمام طاولته الخشبية، يمسك بقطعة قماش يمسح بها غبار يوم طويل، وعلى وجهه إعياء شديد يختبئ خلف استسلام ظاهري.

أقتربت منه بمهل، وضعت يدها على كتفه المجهد، وقالت بصوت هادئ يحمل كل ألوان الثبات:

– «خالد.. أتعلم ما الذي يمنعك حقيقة من العودة إلى التدريس«؟

رفع عينيه إليها ببطء، وابتسم بمرارة:

– «وهل بقي لي وجهٌ أعود به يا سعاد؟ بعد تلك الملاحظة المهينة على لوحة الإعلانات؟ كيف أقف أمام الطلاب مجددا«؟ً

ضغطت على كتفه برفق، وقالت بنبرة حاسمة يملؤها اليقين:

– «تمنعك الهزيمة النفسية، لا الامتحان ذاته! أنت لم ترسب لأنك جاهل بالكلية، بل لأنك وقفت أمام أسئلة وضعتها بنية التعجيز لا بنية العلم، وطاردك غرورك القديم حتى شل تفكيرك. الفضيحة الحقيقية ليست في أن نخطئ أو نفشل في اختبار، بل في أن نهرب ونترك الشائعات تنهك أجسادنا وأسماءنا وأبناءنا«.

تابعت سعاد وهي تنظر في عينيه مباشرة:

– «ما الذي يمنع أن تعود؟ أن تجلس بينك وبين نفسك، تراجع كتابك بعين التلميذ الصادق لا الأستاذ المتعالي، ثم تعود لتواجه القاعة؟ العودة إلى التدريس اليوم ليست مجرد استعادة لكرسي، بل هي من سينقذ اسمك وتاريخك من أن تناله الشائعات وتلوك به الألسن. عُد لتثبت لنفسك ولأبنائك ولطلابك أن العالم لا ينتهي عند عثرة، وحين يستعيد اسمك هيبته وحضورك صدقه.. لك مطلق الحرية حينها أن تقرر من جديد: هل تواصل في منصة التدريس، أم تعود إلى خشبتك هذه وأنت مرفوع الرأس«؟

ساد الصمت في المنجرة، ونظر خالد إلى يديه الخشنتين، ثم إلى عيني سعاد اللتين لم تفارقهما الطمأنينة. ولأول مرة منذ أشهر، شعر بضوء ينبعث في عتمة صدره.

الفصل الخامس: الوقوف المشرّف

وقف «خالد» على عتبة القاعة رقم.(4)

كان الهدوء يسود المكان، والطلاب يجلسون على مقاعدهم، يترقبون بدخولٍ حذر تلك اللحظة التي طال انتظارها. كانت النظرات مزيجاً من الفضول والهمس والشفقة المكتومة.

تنفس خالد بعمق، مستحضراً كلمات سعاد وصوت المنشار اليدوي الذي أعاد ترتيب روحه من جديد. خطى خطواته بثبات نحو المنصة، لم يكن يحمل في يده هذه المرة تلك الأوراق المعقدة ولا الهالة الكاذبة التي كان يرتديها لسنوات.

وضع محفظته على الطاولة، وتأمل وجوه الطلاب لثوانٍ معدودة، قبل أن يبتسم ابتسامة صادقة خالية من أي غرور، وقال بنبرة هادئة وواضحة:

– «أعلم ما يدور في أذهانكم جميعاً.. وأعلم أنكم قرأتم تلك الملاحظة على لوحة الإعلانات«.

ساد القاعة صمتٌ مطبق، وتسمرت العيون عليه. تابع خالد بثقة لم يعهدوها فيه من قبل:

– «لقد أخطأتُ حين ظننتُ أن العلم استعلاء وتحدٍّ، وحين صنعتُ أسئلة هدفها تعجيزكم لا فهمكم، فوُقعتُ في الفخ الذي حفرته بنفسي. الفشل في الامتحان ليس نهاية العالم، لكن الهرب منه هو الخسارة الحقيقية. أنا هنا اليوم لا لأعيد هيبة لقب، بل لأبدأ معكم صفحة جديدة قائمة على الصدق والعلم الحقيقي.. فهل نبدأ«؟

ضجت القاعة بالتصفيق المفاجئ، واختفت نظرات الشك لترتسم مكانها علامات الاحترام والتقدير الحقيقي.

وفي تلك اللحظة بالذات، شعر خالد أنه لم ينقذ اسمه فحسب، بل حقق أول «نجاح صغير» وواقعي في حياته الأكاديمية.

5-كيف تعلم أنك راسب قبل أن ترى النتيجة؟

رواية قصيرة

الفصل الأول: رائحة الشحار وصمت هزيع الليل

كانت خطوط الشحم الداكنة المتغلغلة في مسامّ يديه تبدو تحت ضوء الشارع الخافت كخارطة قديمة لدروبٍ لم اخترها.

في الخامسة صباحاً، والسوق القديم بعدُ لم يستفق من غفوته، كان سليم يمسك بمفتاح الدكان الثقيل. تتردد في ذهنه حشرجة قفل الباب الحديدي كل صباح كأنها إعلان يومي عن بداية القيد. سبع بنات في البيت، وأبٌ يقعده المرض في فراشه يرمقه في كل عودة بنظرة تفيض بالرجاء والامتنان، كأنه يقول دون كلام: "أنت السند يا سليم".

في زاوية الدكان، أسفل رفّ أوعية الزيت وقطع الغيار الصدئة، كان يحتفظ بصندوق خشبي صغير يخبئ فيه كتبه ومذكراته الأكاديمية. كان يختلس الدقائق بين زبون وآخر، يفرك أصابعه بقماش خشن ليجفف عنها الشحم قبل أن يلمس أطراف الصفحات الناصعة.

كان يسأل نفسه كلما أطفأ قنديل الليل المؤقت في حجرته الصامتة: "كيف يوفق المرء بين قلبٍ يحلق في سماء العلم، ويدين تغرقان كل يوم في وحل الحرفة؟ وهل تكون المطالبة بالحلم شكلاً من أشكال الخروج عن طاعة هذا البيت؟"

الفصل الثاني: جسر من ورق وصمت القاعة

لم تكن المسافة بين الدكان وبوابة الكلية تُقاس بالخطوات، بل بمقدار ما يترسب في الروح من قلق. كان "سليم" يمشي وفي يده ملف أوراقه المهترئة، يعتصر أطرافه بأصابع ما تزال تفوح منها رائحة الزيت والشحار.

كلما اقترب من الحرم الجامعي، كان ضجيج السوق القديم وزعيق سياراته يبتعد تدريجياً، ليحل محله صمتٌ خفي يلتف حول صدره كقيد.

جلس على رصيف الحديقة المجاورة للمبنى قبل فتح القاعات بساعة. تطلع في كفيه الصلبتين؛ كانت التعرجات الداكنة على جلده تشهد على سنوات العمل الشاق، لكن عينيه كانتا ترنوان إلى أطراف السطور الناصعة في كراساته. استعاد في تلك الساعة شريط السنوات السبع الماضية؛ كيف كان يقتطع ساعات الليل المسروقة من تعب النهار ليحفظ القواعد، وكيف كان يخبئ كتبه أسفل طاولات الحدادة خشية أن يراها زبون عابر فيسخر من صانعٍ يطمح لما هو أعلى من حديد الدكان.

توقف الشريط عند صورة أبيه وهو يقلب كفيه المتشققتين ويدعو له في الصباح، وتراءت له عيون أخواته السبع؛ زهرات البيت اللاتي ينتظرن منه العودة كل مساء بقوت يومهن. تساءل بنبرة تخنقها الحشرجة: "هل يملك المرء حق الحلم حين يكون هو العمود الوحيد الذي يسند سقفاً كاملاً؟"

فُتحت الأبواب. خطى سليم إلى الداخل بخطوات تشبه المشي على حبل مشدود فوق زاوية حادة. جلس في المقعد الأخير من القاعة الممتدة. كان المكان مهيباً، يخيم عليه صمتٌ ثقيل بصمت الموت، كأنما يتربص بالأنفاس.

وُضعت الورقة أمامه. بيضاء، مصقولة، لا تشبه في شيء جدران الدكان الداكنة. امتدت يده لتمسك بالقلم، وما إن التقت عيناه بسطور السؤال الأول، حتى وقع الانكسار الخفي.

لم يكن الجهل بالمادة هو ما كبّل لسانه وقلمه، بل إن الحروف المطبوعة بدأت تتلاشى، ليرتسم بدلاً منها واقعٌ ضاغط؛ رأى أتربة الدكان تغطي كراساته، وسمع أنين أبيه تحت وطأة المرض، وتراءت له نظرات أخواته المنتظرة.

في تلك اللحظة بالذات، وبينما زُملاؤه يخطون إجاباتهم بشغف، شعر سليم بغثيان خفيف وبفجوة لا تُردم بين العالَمين. أدرك – بيقينٍ حارق لا يخالطه شك – أنه راسب. راسب ليس لأنه لم يحفظ، بل لأن عقله كان منقسمًا إلى نصفين: نصف يلهث ليلحق بالكلمات، ونصف آخر يصارع ليبقي عائلته واقفة على قيد الحياة.

تسمر القلم في يده. انقبضت أصابعه الخشنة على جسده البلاستيكي حتى كادت تكسره. غامت الحروف أمام عينيه، وأيقن أن النتيجة قد حُسمت قبل أن يكتب حرفاً واحداً. بلغت الأزمة ذروتها في صدره: هل انتهى الحلم هنا؟ وهل كان السعي للتعلم مجرد ترفٍ لا يملكه أمثاله؟

الفصل الثالث: الانفراج وأفق اليقين

لم يكن الصمتُ حكماً بالإعدام بقدر ما كان لحظة استراحةٍ محترمة لروحٍ أنهكها الركض في اتجاهين.

ظل القلم مَغروساً بين أصابعه الخشنة كأنه وتدٌ يربطه بالحاضر. رفع سليم رأسه قشوراً نحو سقف القاعة العالي، ثم أغمض عينيه طويلاً. أطلق تنهيدةً بطيئة، خرجت من أعماق صدره كأنها تزاحم كل أتربة السوق وشحار السنوات الماضية.

حين فتح عينيه مجدداً، لم يجد الحروف قد عادت إلى مكانها، لكن شيئاً أعمق كان قد تغير في داخله. أدار الورقة البيضاء بهدوء، وتأمل راحة كفيه. تلمس ندبةً القديمة عند أسفل إبهامه—آثر ضربة مطرقةٍ قبل أعوام حين كان يدافع عن قوت يوم أخواته.

ابتسم ابتسامةً خفيفة، دافئة، لم تكن فيها قطرة واحدة من المرارة. حدث نفسه بنبرةٍ يملؤها السكون: "إن هاتين اليدين اللتين حملتا أمانة البيت بكل هذا الصدق، لن تخيبا في حمل الحياة. لم أكن فاشلاً اليوم؛ بل كنتُ رجلاً يزن أثقال العالم بكتفين حقيقيتين."

وانساب في خاطره الإيمان الشفيف: "مَنْ يدري؟ ربما وضعنا الله في المكان المناسب تماماً.. فمن لم يفلح في قاعة الامتحان الأكاديمي، لا يعني أنه فاشل في الحياة، فقد يفلح في غيرها إفلاحاً يُبهر العقول ويفتح أبواباً لم تكن على بال!"

لم ينتظر حتى يقرع الجرس إيذاناً بنهاية الوقت. وضع القلم بوقارٍ على الطاولة، وأمسك بملف أوراقه، ثم قام بخطواتٍ ثابتة ومرفوعة الرأس.

حين خرج من بوابة الكلية، كانت الشمس قد بلغت كبد السماء، وتساقطت أشعتها الذهبية على وجهه. لم يعد يرى الدكان أو حرفة أبيه سجناً ضيقاً، بل أرضاً خصبةً يمكن أن ينقل إليها شغفه بأسلوبٍ جديد؛ يطور العمل، يبتكر الوسائل، ويكون هو الصانع والذكاء والظهر الحامي في آنٍ واحد.

لقد سقط عن كاهله وهم "الرسوب"، وتجلت له الحقيقة الباقية: أن الحياة أوسع بكثير من مقاعد الامتحانات، وأن الناجح الحقيقي هو من يعرف كيف يحول عثرته إلى بداية طريقٍ أرحب.

مؤكد كانت أمي على حق:

> **«مَنْ يدري؟ ربما وضعنا الله في المكان المناسب تماماً.. فمن لم يفلح في الدراسة الأكاديمية، لا يعني أنه فاشل في الحياة، فقد يفلح في غيرها إفلاحاً يُبهر العقول!»**

6–صدى في خرسانة الأخطبوط....

رواية قصيرة — دراما وتكنولوجيا وسرد فلسفي

إهداء ومقدمة أدبية:

إلى كل من رأى بيته يُهدم أمام عينيه وظن أن الذاكرة غبار يزول مع الريح...

إلى الجدران التي سقطت أجسامها وظلت أصداؤها تحفر في وجدان البناة.

إن العدالة لا تقاس دائماً بدمار الظالم، بل باللحظة التي يدرك فيها أن عرشه الفاره ممتد فوق الفراغ الذي حاول محوه.

الفصل الأول: الشفرة الأولى والاهتزازات مجهولة السبب

لم يكن الصوت الذي رافق البطل طوال سنوات غربته واغترابه مجرد هلاوس ناتجة عن صدمة الطفولة، أو حنينٍ جارف لدارٍ طواها الركام، لقد آمله هذا الصوت الذي مازال يبكي...نعم يبكي.. رغم صوته الهائل الجارح..رغم جبروت حجمة..رغم جبروت مهمته...

حين وقفت الآلات العملاقة قبل عشرين عاماً لتهدم بيتهم الطيني القديم، كان يضع أذنه على الجدار البارد. لم تكن الكسّارات تبكي أو تعتذر كما توهم المعزون يومها، بل كانت تصدر ترادفات رنينية خاصة—اهتزازات منخفضة التردد حفرت نفسها في خلايا ذاكرته، آلمته حتى الصميم..حفرت أخاديدا...تركن ندبات لاتمحى...فالذكريات قطعة منا ولو مضى الزمان ..لماذا المكابرة؟ نحن نعيش الواقع بنفَس مابقي منا ..والأجمل أن ننهض بها للأفضل...

عندما درس الفيزياء الجيولوجية والهندسة الديناميكية في كبريات الجامعات العالمية، كان دافعه السرّي فك تلك الظاهرة التي أسماها 'الطنين الميكانيكي مجهول السبب'. أجرى محاكاة حاسوبية فائقة لطبقات الأرض المحيطة بطفولته، واكتشف أن عملية الهدم القديمة لم تكن مجرد دكّ لحيٍّ سكني، بل استخدمت فيها شركة 'الأخطبوط' كسّارات هيدروليكية ذات ترددات غير معايرة، اخترقت طبقة الرواسب الكلسية الشديدة الهشاشة على عمق أربعين متراً.

أحدث ذلك الهدم خللاً يسمى علمياً 'التجاوب الفراغي المتناوب (Reciprocal Cavity Resonance)'. فالتربة لم تستقر، بل ظلت تغلي تحت الأرض في حركات ميكرو-اهتزازية لا تتجاوز 2.5 Hz—وهي ترددات تحت صوتية (Infrasound) لا تدركها الأذن البشرية كموسيقى أو كلام، لكن الدماغ يترجمها على هيئة ضغط نفسي وحنين وشعور دائم بـ 'صوت آلات تبكي وتعتذر.'

كانت هذه الترددات هي نقطة الضعف القاتلة؛ فأي حمولة ساكنة تزيد على ألف طن فوق هذه البؤرة ستحدث ظاهرة التميّع الصخري (Soil Liquefaction) خلال سنوات قليلة. وكان 'الأخطبوط'—الشركة العقارية العملاقة التي انتزعت أرضهم قديماً—جاهلاً بهذه الحقيقة، يستعد لبناء أضخم برج تجاري في المدينة يحمل سبعين ألف طن فوق ذلك الركام تحديداً.

الفصل الثاني: الاختراق المعماري الناعم

لم يواجه البطل 'الأخطبوط' في المحاكم، ولا بقضايا الثأر التقليدية التي تستهلك العمر ولا تعيد حجراً. استخدم علمه وثراءه الفاحش للتدخل كشريك تكنولوجي ومستشار هندسي لا غنى عنه في المشروع.

قدم صدمة لمجلس الإدارة: بفضل براءات اختراعه في الهندسة المعمارية الحديثة، طرح تصميماً مستقبلياً يرفع كفاءة البرج إلى الضعف، ويقلل التكلفة بنسبة ثلاثين بالمئة. غير أن تصميمه احتوى على شرط تكتيكي دقيق لم يفهمه أحد غيره: ترك فراغ هندسي سفلي (Atrium) مجوف في قلب البرج السكني، يطابق تماماً الإحداثيات والمساحة الأفقية لبيته القديم الذي هُدم.

أوهمهم أن هذا الفراغ هو 'تشتيت ديناميكي للرياح'، بينما كان في الحقيقة مركز الاتزان الجيوفيزيائي الوحيد الذي يمنع البرج كله من السقوط في الفجوة الكلسية التي أحدثتها الآلات قديماً.

الفصل الثالث: مواجهة الفراغ (النهاية المفتوحة)

في ليلة الافتتاح التجريبي للبرج، كانت أضواء الليزر تشق السماء، وكبار المستثمرين يرتشفون النخب في الطبقات العليا، بينما كان 'الأخطبوط' يقف في المركز متفاخراً بهذا الصرح الذي يزن آلاف الأطنان من الإسمنت والزجاج.

نزل البطل إلى الطابق السفلي... إلى ذلك الفراغ المظلم والمجوف الذي يتوسط المبنى. جلس على الأرض الإسمنتية الصافية، في النقطة نفسها التي كانت تقع فيها غرفة نومه قديماً. أخرج من جيبه جهازاً يدوياً صغيراً لقياس الترددات الصوتية وضعه على الأرض. على الشاشة الرقمية، كانت الذبذبات ترسم خطوطاً مضطربة؛ صوت الأرض تحت البرج ما زال يئن ويصرخ بالتشتت الجيولوجي.

اقتربت الخطوات الثقيلة. كان 'الأخطبوط'—الذي خط الشيب شعره لكن ملامح الجشع لم تفارقه— يمشي بتؤدة في الفراغ الإسمنتي المظلم، واضعاً يديه في جيبي معطفه الفاخر، ومبتسماً ابتسامة من يظن أنه يملك كل شيء.

وقف على بعد خطوات من البطل، وقال بصوت يتضح فيه غرور السلطة:

' —توقعت أن أجدك في الطابق الأخير تشرب النخب مع المستثمرين... ما الذي يفعله الشريك الهندسي الأكبر في هذا القبو المعتم؟'

التفت البطل إليه بهدوء، وهو يطفئ الشاشة الصغيرة لـ 'محلل الترددات' في يده:

' —أقف في بيتي'.

ضحك الأخطبوط ضحكة قصيرة رنانة:

' —بيتك؟ أوه... الذاكرة القديمة! ألم نتجاوز هذه العاطفية يا دكتور؟ الأرض تم استملاكها بالقانون، واليوم يعلو فوقها أعظم برج في العاصمة. لقد دفعنا لك ملايين مقابل تصميمك المعماري العبقري، وأظنك قبضت ثمن ذكرياتك وزيادة'.

اقترب البطل خطوة واحدة، وجعل نظراته تتصل بعيني الأخطبوط مباشرة:

' —أنت لم تشترِ تصميماً يا سيد... أنت اشتريت حياتك. هذا الفراغ المظلم الذي نقف فيه ليس حس نفعي أو لمسة جمالية؛ إنه المساحة الدقيقة لبيتي القديم. تركته مجوفاً لأن التربة تحتنا لا تحمل خرسانتك. هدمكم القديم أحدث فجوة كلسية لا تثبت إلا إذا ظل هذا الفراغ مفرغاً تماماً من وزنك'.

توقفت ضحكة الأخطبوط، وانعقد حجباه:

' —ما الذي تهذي به؟ التقرير الهندسي الصادر عن شركتك أكد أن المبنى آمن بنسبة مئة بالمئة'.

أخرج البطل الملفين من حقيبته، وأمسك بأحدهما دون أن يفتحه:

' ـــهو آمن... ما دمتُ أنا هنا، وما دام بيتي حياً في قلب برجك. التقرير الأول في يدي يثبت أن أي محاولة لردم هذا الفراغ أو بناء طوابق إضافية داخل القبو ستحول الذبذبات التحت صوتية إلى انهيار ساختي يتكفل به قانون الجاذبية في ثوانٍ. أما الملف الثاني... فهو المفتاح الحسابي لموازنات النواسي الديناميكية في أعلى البرج؛ إنها توازن اهتزازات الأرض تحتنا في كل ثانية'.

اتسعت عينا الأخطبوط، وتراجع خطوة إلى الخلف وهو يشعر بلحظة الذهول الأولى. لم يعد البطل ذلك الطفل الباكي عند الركام، بل أصبح المهندس الذي يمسك برقبة الإمبراطورية كلها. سأله الأخطبوط بصوت تهيج فيه النبرة الحادة:

' ـــماذا تريد؟ المال؟ السيطرة على الشركة؟ أم تريد هدم البرج والانتقام؟'

ابتسم البطل ابتسامة غامضة، وأعاد جهاز التحكم إلى جيبه الداخلي، دون أن يسلّم الملف أو يهدد بالهدم:

' ـــلا هذا ولا ذاك. أنا فقط أعدت البيت إلى مكانه. ستبقى أنت فوق تجمع الأموال وتلتقط الصور للمجلات، وسأبقى أنا الشفرة التي تمنع هذا العرش من السقوط. كلما سمعتَ طنيناً خفيفاً في أذنك ليلاً... تذكر أن بيتي هو الذي يحملك'.

التفت البطل ومشى بخطوات ثابتة نحو المخرج المضيء، تاركاً الأخطبوط واقفاً وحيداً في وسط الفراغ المجوف، تحت وطأة الصمت الثقيل.

ذاتية الكاتب

د. ريم عبد الإله الخاني

omferas@gmail.com

عميد كلية اللغة العربية في جامعة الحكمة الافتراضية

محاضر لغة عربية في معهد الفجر الأزهري

مشرفة في قراءة حفص في مقرأة ألف لام ميم.

عضو الاتحاد الدولي للغة العربية.

عضو اللجنة العلمية لمجلة سيبوية الماليزية..

عضوة الاتحاد الدولي للغات والترجمة

عضو لجنة التحكيم لمجلة استيعاب المحكمة. الجزائر

عضو لجنة تحكيم البحوث في مجلة تكامل الجزائرية

جوائز

-1جائزة البيبيسي الأدبية عن قصة "باب الخزانة: برنامج أرواق

-2جائزة خليفة التربوية لقصة الأطفال: صندوق الأفكار.

دار أصالة المرحلة المتوسطة الثالثة، دار أصالة.

لقد بات لديها أكثر من خمسين كتاب بين ورقي وإلكتروني وأكثر من مائة بحث أكاديمي جامعي

مؤسسة شبكة فرسان الثقافة الأدبية.